تفسير سورة براءة

هى مائة وثلاثون آية ، وقيل : مائة وسبع وعشرون آية ، ولها أسماء: منها سورة التوبة ؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها : ومنهم، ومنهم حتى كادت أن لا تدع أحدا ، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين ، وتسمى المبعثرة : والبعثرة البحث ، وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة ؛ لكونها تقشقش من النفاق ، أى تبرئ منه ؛ والمخزية لكونها أخزت المنافقين ، والمثيرة لكونها تثير أسرارهم ، والحافرة لكونها تحفر عنها، والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم ، والمدمدمة لأنها تدمدم عليهم .

وهى مدنية . قال القرطبى : باتفاق [١] . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت براءة بعد فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة التوبة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والنسائى وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ [النساء : ١٧٦] . وآخر سورة نزلت تامة براءة [٢] .

وقد اختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّلها على أقوال :

الأوّل عن المبرد وغيره : أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد ، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ، بعث بها النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادة العرب . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت علىّ بن أبى طالب : لم لا تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللّه الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود، والترمذى وحسنه، والنسائى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩٠٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٠٢٦٢) والبخارى فى التفسير(٤٦٠٥ ، ٤٦٥٤) وفى المغازى (٤٣٦٤) ومسلم فى الفرائض (١١/١٦١٨ ، ١٢) والنسائى فى التفسير (٢٣٢) وابن الضريس فى فضائل القرآن (١٩ ، ٢٠) والنحاس فى ناسخه ١٩٤ ، وابن جرير ٦/ ٢٩ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣٦ .

الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول (١). وأخرج أبو الشيخ عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة ؟ قال : سورتان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : يسمون هذه السورة سورة التوبة ، وهى سورة العذاب . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : فى هذه السورة هى الفاضحة ما زالت تنزل : ومنهم ، حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة ، فقال ابن عمر: وأيتهن سورة التوبة ، ثم قال : وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هى ؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقشة. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : يسمونها سورة التوبة ، وإنها لسورة عذاب . وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال : كانت براءة تسمى فى زمن النبى ﷺ وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عمير قال : كانت براءة تسمى المنقرة نقرت عما فى قلوب المشركين . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى عطية الهمدانى قال : كتب عمر بن الخطاب : تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور .

ومن جملة الأقوال فى حذف البسملة أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريبا منها ، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روى هذا عن مالك بن أنس وابن عجلان .

ومن جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان . قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر ؛ لأنهما جميعا فى القتال ، وتعدان جميعا سابعة السبع الطول .

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ .

---

(١) أحمد ١/ ٥٧ وأبو داود فى الصلاة (٧٨٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٨٦) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٠٧) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٠ ووافقه الذهبى .

قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ : برئت من الشيء أبرأ براءة ، وأنا منه برىء : إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه ، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه براءة ، ويجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة ، والخبر ﴿ **إلى الذين عاهدتم** ﴾ . قرأ عيسى بن عمر « براءة » بالنصب على تقدير : اسمعوا براءة ، أو على تقدير : التزموا براءة ، لأن فيها معنى الإغراء ، و« من » فى قوله : ﴿ **من اللّه** ﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة ، أى واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم . وقرأ روح وزيد بنصب ﴿ **رسوله** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . والعهد : العقد الموثق باليمين . والخطاب فى عاهدتم للمسلمين ، وقد كانوا عاهدوا مشركى مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ ، والمعنى : الإخبار للمسلمين بأن اللّه ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النبذ إليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ، ومعنى براءة اللّه سبحانه : وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم ، وفى ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذلّ والهوان ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة ، والسياحة : السير ، يقال : ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ، ومنه سيح الماء فى الأرض وسيح الخيل ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفت هذا منك ما نلتنى حتى ترى خيلا أمامى تسيح

ومعنى الآية : أن اللّه سبحانه بعد أن أذن بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب فى الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر ، وليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها . قال محمد بن إسحاق وغيره : إن المشركين صنفان : صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ، وهو حرب بعد ذلك للّه ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم ، وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجة وشهر محرم . وقال الكلبى : إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر ، ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر اللّه أن يتمّ له عهده بقوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ ورجح هذا ابن جرير وغيره[1] ، وسيأتى فى آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية . ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى اللّه** ﴾ أى اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب ، وفى ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل : افعلوا

(١) ابن جرير ١٠/٤٢ والقرطبى ٤/٢٩٠٣ .

فى هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تفوتون اللّه وهو مخزيكم ، أى مذلكم ومهينكم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب ، وفى وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر ، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوّليا .

قوله : ﴿ **وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر** ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدّم فى ارتفاع براءة ، والجملة هذه معطوفة على جملة : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ وقال الزجاج : إن قوله : ﴿ **وأذان** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **براءة** ﴾ . واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكان ﴿ **أذان**﴾ مخبر عنه بالخبر الأوّل ، وهو : ﴿ **إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ وليس ذلك بصحيح . بل الخبر عنه هو : ﴿ **إلى الناس** ﴾ والأذان بمعنى : الإيذان وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء ، ومعنى قوله : ﴿ **إلى الناس**﴾ التعميم فى هذا ، أى أنه إيذان من اللّه إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم ، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس ، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة ، و ﴿ **يوم الحج** ﴾ ظرف لقوله : ﴿ **وأذان** ﴾ ، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه .

وقد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية ، فذهب جمع ، منهم على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد أنه يوم النحر ، ورجحه ابن جرير[1] . وذهب آخرون ، منهم عمر وابن عباس وطاوس أنه يوم عرفة . والأوّل أرجح ؛ لأن النبى ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر[2] . قوله : ﴿ **أن اللّه برىء من المشركين ورسوله** ﴾ قرئ بفتح « أن » على تقدير : بأن الله برىء من المشركين ، فحذفت الباء تخفيفا . وقرئ بكسرها ؛ لأن فى الإيذان معنى القول ، وارتفاع ﴿ **رسوله** ﴾ على أنه معطوف على موضع اسم « أن » ، أو على الضمير فى ﴿ **برىء** ﴾ ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير : ورسوله برىء منهم . وقرأ الحسن وغيره : « ورسوله » بالنصب عطفا على لفظ اسم ﴿ **أن** ﴾ . وقرئ: « ورسوله » بالجرّ على أن الواو للقسم ، روى ذلك عن الحسن ، وهى قراءة ضعيفة جدا ؛ إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ ها هنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير الله ، وقيل : أنه مجرور على الجوار .

قوله : ﴿ **فإن تبتم** ﴾ أى من الكفر ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، قيل : وفائدة

(١) ابن جرير ١٠/ ٥٠ والقرطبى ٤/ ٢٩٠٨ .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :« بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك . . . » إلى آخر الحديث . أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٥٦ ، ٤٦٥٧) .

هذا الالتفات زيادة التهديد ، والضمير فى قوله : ﴿ **فهو** ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم ﴿**خير لكم** ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿**وإن توليتم** ﴾ أى أعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر ﴿**فاعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ أى غير فائتين عليه،بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم . قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ هذا تهكم بهم ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحجّ حتى لا يكون ذلك،فأرسل أبا بكر وعليا فطافا فى الناس بذى المجاز،وبأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله ، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهى : الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات ، عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا [1] . وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن علىّ قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على [2] النبىّ ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال لى : « أدرك أبا بكر ، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة » ، فلحقته فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبو بكر وقال : يا رسول الله ، نزل فىّ شىء ؟ قال : « لا ، ولكن جبريل جاءنى فقال : لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»[3] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس نحوه [4] . وأخرج ابن مردويه من حديث سعد بن أبى وقاص نحوه أيضا .

وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنت مع علىّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة ، فكنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله وأمده إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله،ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحجّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن على فى يوم النحر ببراءة : ألا

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤٤ .

(٢) فى المطبوعة : «عن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٥٩، ٣٦٠ وقال: « هذا إسناد ضعيف ، وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء ذلك مبينًا فى رواية أخرى » ، وقال الهيثمى فى المجمع٧/ ٣٢:« رواه عبد الله بن أحمد وفيه محمد بن جابر السحيمى وهو ضعيف وقد وثق » .

(٤) الترمذى فى التفسير مختصراً (٣٠٩٠) وقال : «حسن غريب » .

يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان [١]. وأخرج الترمذى وحسنه، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، فانطلقا فحجا ، فقام علىّ فى أيام التشريق فنادى : إن الله برىء من المشركين ورسوله فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن ؛ فكان علىّ ينادى ، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها [٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه ، وابن المنذر والنحاس ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن تبيع [٣] قال : سألت عليا بأى شىء بعثت مع أبى بكر فى الحج ؟ قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر [٤] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ الآية قال : حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا الإسلام ونقض ما سمى لهم من العهد والميثاق،وأذهب الشرط الأوّل ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ يعنى : أهل مكة . وأخرج النحاس عنه نحو هذا ، وقال : ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا أحدا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والنحاس عن الزهرى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ قال : نزلت فى شوال فهى الأربعة أشهر : شوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرّم[٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وأذان من الله ورسوله** ﴾ قال : هو إعلام من الله ورسوله .

وأخرج الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن علىّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر فقال : يوم النحر[٦] . وأخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وأبو الشيخ

---

(١) أحمد ٢/ ٢٩٩ والبخارى فى الصلاة (٣٦٩) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩١) وقال : « حسن غريب » وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٣) كذا ، والصواب : « زيد بن يُثَيعْ » كما هو فى الترمذى والحاكم والبيهقى فى الدلائل .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٢) وقال : « حديث حسن » ، وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٧ .

(٥) ابن جرير ١٠/ ٤٤ ، ٤٥ .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٨) .

عنه من قوله . وأخرج أبو داود والنسائى، والحاكم وصححه عن عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : « أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال : « يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج البخارى تعليقا وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال : « أىّ يوم هذا ؟ » قالوا : يوم النحر ، قال : « هذا يوم الحج الأكبر » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر : يوم النحر ، والحج الأكبر : الحجّ ؛ وإنما قيل الأكبر : من أجل قول الناس الحجّ الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحجّ عام حجة الوداع التى حجّ فيها رسول الله ﷺ مشرك ، وأنزل الله فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ﴾ (٣) الآية [التوبة : ٢٨] .

وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب . أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح : « إن هذا عام الحج الأكبر » ، قال : « اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات ، واجتمع النصارى واليهود فى ثلاثة أيام متتابعات ؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود فى ستة أيام متتابعات ، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام ، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة » (٤) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال : ما لكم وللحج الأكبر ؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس ، واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمى الحج الأكبر ، ووافق عيد اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : الحجّ الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر ، ألم تر أن الإمام يخطب فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة ، أن رسول الله ﷺ قال يوم عرفة : « هذا يوم الحجّ الأكبر » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الحج الأكبر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال : سألت علىّ ابن أبى طالب عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم عرفة . وأخرج أبو عبيدة وابن المنذر وابن أبى

(١) أبو داود فى المناسك (١٧٦٥) وصححه الحاكم ٤/ ٢٢١ ووافقه الذهبى ،والقر: هو اليوم الذى يلى يوم النحر .

(٢) البخارى فى الحج (١٧٤٢) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٥٨) وابن جرير ١٠/ ٥٢، ٥٣ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٧٤ .

(٣) البخارى فى الحج (١٦٢٢) وفى الجزية (٣١٧٧) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٤) الطبرانى (٧٠٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٨١ : « رواه البزار وفيه يوسف بن خالد السمتى وهو ضعيف » .

حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر . وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه .

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر : هو يوم الحج الأكبر ، هى ثابتة فى الصحيحين وغيرهم من طرق ، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل : هذا الحج الأكبر ، فما الحج الأصغر ؟ قال : عمرة فى رمضان . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن إسحاق قال : سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال : الحج الأكبر يوم النحر ، والحج الأصغر : العمرة . وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسعود قال : سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه فقال : ألم تسمع قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ .

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾** ﴾ .

الاستثناء بقوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال الزجاج : إنه يعود إلى قوله : ﴿ **براءة** ﴾ والتقدير : براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقصوا العهد منهم . وقال فى الكشاف : إنه مستثنى من قوله : ﴿ **فسيحوا** ﴾ والتقدير : فقولوا لهم : فسيحوا إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا إليهم عهدهم . قال : والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين : ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم[1] . وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه ، وهو ﴿ **وأذان من الله** ﴾ إلخ . وأجيب بأن ذلك لا يضرّ؛ لأنه ليس بأجنبى . وقيل : إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله فيكون متصلا وهو ضعيف . قوله : ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ أى لم يقع منهم أىّ نقص ، وإن كان يسيرا ، وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار : « ينقضوكم » بالضاد المعجمة ، أى لم ينقضوا عهدكم ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ، ومنهم من ثبت عليه ، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض ، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ المظاهرة : المعاونة ، أى لم يعاونوا

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

عليكم أحدا من أعدائكم ﴿**فأتموا إليهم عهدهم** ﴾ أى أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص ﴿ **إلى مدتهم** ﴾ التى عاهدتموهم إليها وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، ولا تعاملوهم معاملة الماكثين من القتال بعد مضى المدّة المذكورة سابقا ، وهى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق .

قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ انسلاخ الشهر : تكامله جزءا فجزءا إلى أن ينقضى كانسلاخ الجلد عما يحويه ، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه ، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده . فاستعير لانقضاء الأشهر ، يقال : سلخت الشهر تسلخه سلخا وسلوخا بمعنى : خرجت منه ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشهور وإهلالى

ويقال : سلخت المرأة درعها : نزعته ، وفى التنزيل : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : ٣٧] .

واختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا ، فقيل : هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة، وذو الحجة ، ومحرّم ، ورجب : ثلاثة سرد ، وواحد فرد . ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر . وروى عن ابن عباس واختاره ابن جرير . وقيل : المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ وسميت حرما؛لأن الله سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل : هى الأشهر المذكورة فى قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة ، ورجحه ابن كثير ، وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدّى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وسيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة إن شاء الله.ومعنى:﴿ **حيث وجدتموهم** ﴾: فى أى مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم . ومعنى ﴿ **خذوهم** ﴾ : الأسر فإن الأخيذ هو الأسير . ومعنى الحصر : منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدوّ ، يقال : رصدت فلانا أرصده ، أى رقبته ، أى اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها . قال عامر بن الطفيل :

ولقد علمت وما أخالك عالما أن المنية للفتى بالمرصد

وقال النابغة :

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للنفوس بمرصد

و﴿ **كل** ﴾ فى ﴿ **كل مرصد** ﴾ : منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج ؛ وقيل هو منتصب بنزع الخافض، أى فى كل مرصد ، وخطأ أبو علىّ الفارسى الزجاج فى جعله ظرفا . وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة ، وهو المرأة والصبىّ والعاجز الذى لا يقاتل ، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم ، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم . وقال الضحاك وعطاء والسدّى : هى منسوخة بقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤] . وأن الأسير لا يقتل صبرا بل يمن عليه أويفادى ، وقال مجاهد وقتادة : بل هى ناسخة لقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ وأنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . قال القرطبى : وهو الصحيح لأن المنّ والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أوّل حرب جاء بهم وهو يوم بدر [1] . قوله: ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام ، وهو إقامة الصلاة ، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها ، واكتفى بالركن الآخر المالى ، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لأنه أعظمها ﴿ **فخلوا سبيلهم** ﴾ أى اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لهم ﴿ **رحيم** ﴾ بهم .

قوله : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره** ﴾ ، يقال : استجرت فلانا ، أى طلبت أن يكون جارا،أى محاميا ومحافظا من أن يظلمنى ظالم ، أو يتعرّض لى متعرّض.و ﴿ **أحد** ﴾ مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده ، أى وإن استجارك **أحد** استجارك ، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر . والمعنى : وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم **فأجره** ، أى كن جارا له مؤمنا محاميا ﴿ **حتى يسمع كلام الله** ﴾ منك ويتدبره حق تدبره ، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه ﴿ **ثم أبلغه مأمنه** ﴾ أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم ، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه ، ووجوب قتله حيث يوجد ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩١٢ .

وما بعده ﴿ **بأنهم قوم لايعلمون** ﴾ أى بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر فى الحال والمآل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم قريش . وأخرج أيضا عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبىّ الله زمن الحديبية ، وكان بقى من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر ، فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدتهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ قال : كان بقى لبنى مدحج وخزاعة عهد ، فهو الذى قال الله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ قال : هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى ﷺ فى غزوة العُشَيْرَة من بطن ينبع ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ قال: لم يظاهروا عدوّكم عليكم ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ يقول : أجلهم الذى شرطتم لهم ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ يقول: الذين يتقون الله فيما حرّم عليهم فيوفون بالعهد . قال : فلم يعاهد النبى ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحدا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ قال : هى الأربعة : عشرون من ذى الحجة والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من ربيع الآخر. قلت : مراد السدّى أن هذه الأشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال ، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : هى عشر من ذى القعدة وذو الحجة والمحرم ، سبعون ليلة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هى الأربعة الأشهر التى قال : ﴿**فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ثم نسخ واستثنى . فقال : ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره** ﴾ يقول: من جاءك واستمع ما تقول ، واستمع ما أنزل إليك ، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله :

﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ قال : إن لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه ، وهذا ليس بمنسوخ. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ أى كتاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال : كان الرجل يجىء إذا سمع كتاب الله وأقرّ به وأسلم فذاك الذى دعى إليه ، وإن أنكر ولم يقرّ به ردّ مأمنه ، ثم نسخ ذلك ، فقال : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ : الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد : اسم يكون ، وفى خبره ثلاثة أوجه : الأول : أنه كيف ، وقدم للاستفهام ؛ والثانى : للمشركين ، ﴿وعند ﴾ على هذين : ظرف للعهد ، أو ليكون ، أو صفة للعهد ؛ والثالث : أن الخبر عند الله ، وفى الآية إضمار، والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه . وقيل : معنى الآية : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا فى ذلك ولا يحدّثوا به أنفسهم ، ثم استدرك، فقال : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ أى لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم ، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم وبينهم ﴿ فاستقيموا لهم ﴾ قيل : هم بنو بكر . وقيل : بنو كنانة وبنو ضمرة ، وفى « ما » وجهان: أحدهما : أنها مصدرية زمانية ، والثانى : أنها شرطية ، وفى قوله : ﴿ إن الله يحبّ المتقين ﴾ إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة .

قوله : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم ﴾ أعاد الاستفهام التعجيبى للتأكيد والتقرير ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم ﴿ لا يرقبوا ﴾ أى لا يراعوا فيكم ﴿ إلا ﴾ أى عهدا ﴿ ولا ذمة ﴾. قال فى الصحاح : الإلّ : العهد والقرابة : ومنه قول حسان :

لعمرك أن إلك من قريش كإلّ السقب من رئل النعام

قال الزجاج : الإل عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة ، ومنه الإلة للحربة ، ومنه أذن مؤللة ، أى محددة، ومنه قولة طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة والانتصاب :

مؤللتان يعرف العتق منهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

قال أبو عبيدة : الإلّ : العهد ، والذمة والنديم . وقال الأزهرى :هو اسم للّه بالعبرانية ، وأصله من الأليل ، وهو البريق، يقال : ألّ لونه يولّ إلا ، أى صفا ولمع . والذمة: العهد ، وجمعها: ذمم ،فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكريرللتأكيد مع اختلاف اللفظين. وقال أبو عبيدة : الذمة: التذمم. وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان كما فى قوله ﷺ : « ويسعى بذمتهم أدناهم » (١) وروى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمم به ، أى ما يجتنب فيه الذّم. قوله : ﴿ **يرضونكم بأفواههم** ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم ، كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين ؛ ثم حكم عليهم بالفسق ، وهو التمرّد والتجرى ، والخروج عن الحق لنقضهم العهود ، وعدم مراعاتهم للعقود ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ أى استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا ، وهو ما آثروه من حطام الدنيا ﴿ **فصدّوا عن سبيله** ﴾ أى فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ، أو صرفوا غيرهم عنه .

قوله : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ قال النحاس : ليس هذا تكريرًا ، ولكن الأوّل لجميع المشركين ، والثانى: لليهود خاصة ، والدليل على هذا : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ يعنى : اليهود . وقيل : هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق ، وفى الأوّل المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة : ﴿ **وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد ، أو البالغون فى الشرّ والتمرد إلى الغاية القصوى : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام ﴿ **فإخوانكم** ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿ **فى الدين** ﴾ أى فى دين الإسلام ﴿ **ونفصل الآيات** ﴾ أى نبينها ونوضحها ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه ، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات : ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم .

وقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: قريش. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل قال : كان النبى ﷺ عاهد أناسا من بنى ضمرة بن بكر وكنانة

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الحج (١٣٧٠/ ٤٦٧) عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : خطبنا على بن أبى طالب فقال ، وذكره بطوله ، وذكره البخارى أيضا فى الفرائض (٦٧٥٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠٣٤).

خاصة ، عاهدهم عند المسجد الحرام ، وجعل مدتهم أربعة أشهر ، وهم الذين ذكر الله ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ يقول : ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هم بنو جذيمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: هو يوم الحديبية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ولا ذمة** ﴾ قال : الإلّ: القرابة، والذمة: العهد . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الإلّ: الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا** ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ الآية يقول : إن تركوا اللات والعزّى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإخوانكم فى الدين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : حرّمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة (١).

﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن نكثوا** ﴾ معطوف على ﴿ **فإن تابوا** ﴾ والنكث : النقض ، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ، ثم استعمل فى كل نقض ، ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة . ومعنى : ﴿ **من بعد عهدهم** ﴾ أى من بعد أن عاهدوكم . والمعنى : أن الكفار إن نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين ، ووثقوا بها وضموا إلى ذلك الطعن فى دين الإسلام ، والقدح فيه فقد وجب على المسلمين قتالهم . وأئمة الكفر : جمع إمام ، والمراد : صناديد المشركين ، وأهل الرئاسة فيهم على العموم . وقرأ حمزة :« أإمة » وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن ؛ لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة . وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية

(١) ابن جرير ١٠/ ٦٢ .

بين بين ، أى بين مخرج الهمزة والياء . وقرئ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الزمخشرى[1]. قوله : ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، والأيمان : جمع يمين فى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر : « لا إيمان لهم » بكسر الهمزة . والمعنى على قراءة الجمهور: أن أيمان الكافرين وإن كانت فى الصورة يمينا فهى فى الحقيقة ليست بيمين . وعلى القراءة الثانية : أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم ، فقتالهم واجب على المسلمين . قوله : ﴿ **لعلهم ينتهون** ﴾ أى عن كفرهم ونكثهم وطعنهم فى دين الإسلام . والمعنى : أن قتالهم يكون إلى الغاية هى الانتهاء عن ذلك . .

وقد استدل بهذه الآية على أن الذمىّ إذا طعن فى الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة ، لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما : نقض العهد ، والثانى : الطعن فى الدين . وذهب مالك والشافعى وغيرهما إلى أنه إذا طعن فى الدين قتل ؛ لأنه ينتقض عهده بذلك ، قالوا : وكذلك إذا حصل من الذمىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فإنه يقتل .

قوله : ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم** ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفى للاستفهام التوبيخى مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة فى تحقيقه ، والمعنى : أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال ، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله ، وأن يوبخ من فرط فى ذلك . ثم زاد فى التوبيخ فقال : ﴿**أتخشونهم**﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أى تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه ، فقال : ﴿ **فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى هو أحق بالخشية منكم ، فإنه الضارّ النافع بالحقيقة ، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله ، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم. ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال : ﴿ **قاتلوهم** ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد : الأولى : تعذيب الله للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل والأسر . والثانية : إخزاؤهم ، قيل : بالأسر . وقيل : بما نزل بهم من الذل والهوان . والثالثة : نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم . والرابعة : أن الله يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره . والخامسة : أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذى نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر .

فإن قيل : شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا . قيل فى الجواب : إن القلب أخص من الصدر . وقيل : إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح ، ولا

(١) الكشاف ٢/ ٢٥١ .

ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها ، ثم قال: ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون ، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح ، فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، وهذا على قراءة الرفع فى ﴿ **يتوب**﴾، وهى قراءة الجمهور . وقرئ بنصب ﴿ **يتوب** ﴾ بإضمار أن ، ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى . قرأ بذلك ابن أبى إسحاق وعيسى الثقفى والأعرج . فإن قيل : كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة ؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سببا لها إذا كانت من جهة الكفار ، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه : أن النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب .

قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تتركوا** ﴾ أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة والاستفهام للتوبيخ ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر ، والمعنى : كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه ، وقوله : ﴿ **أن تتركوا** ﴾ فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه . وقال المبرد : إنه حذف الثانى ، والتقدير : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب ، وجملة ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم ، والمعنى : كيف تحسبون أنكم تتركوا ولما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص ، وجملة : ﴿ **ولم يتخذوا**﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى واقعة فى حيز الصلة ، والوليجة : من الولوج : وهو الدخول ، ولج يلج ولوجا : إذا دخل ، فالوليجة: الدخيلة . قال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة . قال أبان ابن تغلب :

فبئس الوليجة للهاربيـ ـن والمعتدين وأهل الريب

وقال الفراء : الوليجة: البطانة من المشركين ، والمعنى واحد ، أى كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أى بجميع أعمالكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : عهدهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يقول الله لنبيه : وإن نكثوا العهد الذى بينك وبينهم فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أئمة الكفر** ﴾ قال : أبو سفيان ابن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل بن عمرو، وهم الذين

نكثوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة [١] . وأخرج ابن عساكر عن مالك بن أنس مثله. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ قال : رؤوس قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد [٢] . وأخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن مردويه عن حذيفة قال : ما بقى من أهل هذه الآية إلا ثلاثة ، ولا من المنافقين إلا أربعة ، فقال أعرابىّ : إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندرى فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا ، قال : أولئك الفساق ، أجل لم يبق منهم إلا أربعة،أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[٣] . والأولى أن الآية عامة فى كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوما مجوّفة رؤومهم ، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف ، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحبّ إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة : ﴿ **لا أيمان لهم** ﴾ قال : لا عهود لهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار مثله .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ألا تـقاتلون قوما نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : قتال قريش حلفاء النبىّ ﷺ وهمهم بإخراج الرسول ، زعموا أن ذلك عام عمرة النبى ﷺ فى العام التابع للحديبية ، نكثت قريش العهد عهد الحديبية ، وجعلوا فى أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها ؛ فذلك همهم بإخراجه ، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك ، فلما خرج النبىّ ﷺ من مكة قالت قريش لخزاعة :عميتمونا عن إخراجه ، فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : نزلت فى خزاعة ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا وقد ساق القصة ابن إسحاق فى سيرته ، وأورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبىّ ﷺ ، وأوله :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٦٢ . (٢) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٨٩٩٥ ، ١٩٢٣٩) .
(٣) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٢٣٨) والبخارى فى التفسير (٤٦٥٨) .

وأخرج القصة البيهقى فى الدلائل [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الوليجة: البطانة من غير دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : ﴿ **وليجة** ﴾ أى خيانة .

﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٢)** ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ **يعمروا** ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر . وقرأ ابن السميقع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر ، أى يجعلون لها من يعمرها . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وسهم ويعقوب « مسجد الله » بالإفراد . وقرأ الباقون ﴿ **مساجد** ﴾ بالجمع ، واختارها أبو عبيدة . قال النحاس : لأنها أعمّ ، والخاص يدخل تحت العام ، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا قال : وقد أجمعوا على الجمع فى قوله: ﴿ **إنما يعمر مساجد الله** ﴾ وروى عن الحسن البصرى : أنه تعالى إنما قال : ﴿ **مساجد** ﴾ والمراد : المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعامره كعامر جميع المساجد . قال الفراء : العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم : فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم : فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكا واحدا . والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقى أو المعنى المجازى ، وهو ملازمته والتعبد فيه ، وكلاهما ليس للمشركين ، أما الأول : فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثانى : فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام ، ومعنى : ﴿ **ما كان للمشركين** ﴾ ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك ، و ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ حال ، أى ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة ، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر وإن أبوا

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/٧٠٦ .

ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التى هى من شأن المؤمنين ، والشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرّب إلى اللّه بعمارة مساجده . وقيل : المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقيل : شهادتهم على أنفسهم بالكفر : أن اليهودى يقول: هو يهودى ، والنصرانى يقول: هو نصرانى ، والصابئ يقول: هو صابئ ، والمشرك يقول: هو مشرك: ﴿**أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ التى يفتخرون بها ويظنون أنها من أعمال الخير ، أى بطلت ولم يبقى لها أثر ﴿ **وفى النار هم خالدون** ﴾ وفى هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها .

ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ **ولم يخش** ﴾ أحدا ﴿ **إلا اللّه** ﴾ فمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد ، لا من كان خاليًا منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه اللّه على عباده ؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان ، وقد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد وفى بيان ماهية العمارة ، ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما ، وفى قوله : ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم ، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوّا فقط ، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات . وقيل : «عسى » من الله واجبة . وقيل : هى بمعنى خليق ، أى فخليق أن يكونوا من المهتدين . وقيل : إن الرجاء راجع إلى العبادة .

والاستفهام فى :﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ للإنكار ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد ، أو أهلهما ﴿**كمن آمن** ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير فى الخبر ، أى جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعمل من آمن أو كإيمان من آمن . وقرأ ابن أبى وجرة السعدى وابن الزبير وسعيد بن جبير :« أجعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام » جمع ساق وعامر ، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف ، والمعنى : أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير ، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم فى سبيل اللّه ، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين ، فأنكر اللّه عليهم ذلك ، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال : ﴿ **لا يستوون عند اللّه** ﴾ أى لا تساوى تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة باللّه واليوم الآخر المجاهدة فى سبيله ، ودلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدّعيها المشركون ، أى

إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين ، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون ، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من اللّه سبحانه ، وفى هذا إشارة إلى الفريق المفضول .

ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ إلى آخره ، أى الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿ **أعظم درجة عند اللّه** ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة . وفى قوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿**هم الفائزون** ﴾ أى المختصون بالفوز عند اللّه . ثم فسر الفوز بقوله : ﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم** ﴾ والتنكير فى الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم ، والمعنى : أنها فوق وصف الواصفين وتصوّر المتصوّرين . والنعيم المقيم : الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه ، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ، وجملة : ﴿**إن اللّه عنده أجر عظيم**﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل ، أى أعطاهم اللّه سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم يهب منه ما يشاء لمن يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه** ﴾ وقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ فنفى المشركين من المسجد ﴿ **من آمن باللّه** ﴾ يقول : من وحد اللّه وآمن بما أنزل اللّه ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ يعنى : الصلوات الخمس ﴿ **ولم يخش إلا اللّه** ﴾ . يقول : لم يعبد إلا اللّه ﴿ **فعسى أولئك** ﴾ يقول : أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . يقول : إن ربك سيبعثك مقاما محمودا ، وهى الشفاعة ، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ﷺ : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال اللّه تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ »[1] . وقد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردّد إليها للطاعات .

وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول اللّه ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل للّه عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل جهاد فى سبيل اللّه خير مما قلتم ،

(١) أحمد ٣/ ٦٨ ، ٧٦ والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٧٨ والترمذى فى الإيمان (٢٦١٧) وقال: «غريب حسن» وفى التفسير (٣٠٩٣) إلا أنه قال: «يتعاهد الصلاة » وابن ماجة فى المساجد والجماعات (٨٠٢) والبيهقى ٣/ ٦٦ .

فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله: ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ إلى قوله: ﴿**لا يهدى القوم الظالمين**﴾(١).

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ الآية ، وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ [المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧] يعنى : أنهم كانوا يستكبرون بالحرم ، وقال : ﴿ به سامرا ﴾ : كانوا به يسمرون ويهجرون بالقرآن والنبى ﷺ ، فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبىّ الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله : ﴿ **لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ يعنى : الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا ، وفى إسناده العوفى وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفكّ العانى ، فأنزل الله : ﴿**أجعلتم سقاية الحاج**﴾ الآية ، يعنى : أن ذلك كان فى الشرك فلا أقبل ما كان فى الشرك (٢). وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى علىّ بن أبى طالب والعباس. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى قال : تفاخر علىّ والعباس وشيبة فى السقاية والحجابة فأنزل الله : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ الآية(٣) ، وقد روى معنى هذا من طرق .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)** ﴾

---

(١) أحمد ٤/ ٢٦٩ ومسلم فى الإمارة (١٨٧٩/ ١١١) وابن جرير ١٠/ ٦٧ وابن حبان فى الجهاد (٤٥٧٢) .
(٢) ابن جرير ١٠/ ٦٧ . (٣) الواحدى ص١٣٩ .

الخطاب للمؤمنين كافة ، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقالت طائفة من أهل العلم : إنها نزلت فى الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب ، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد [1] الكفر إن استحبوا ،أى أحبوا ،كما يقال : استجاب ، بمعنى أجاب ، وهو فى الأصل : طلب المحبة ، وقد تقدّم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ [المائدة :٥١] ، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم . فدل ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها،ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿ **إن كان آباؤكم** ﴾ إلى آخره . والعشيرة : الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد ، وعشيرة الرجل : قرابته الأدنون ، وهم الذين يعاشرونه ، وهى اسم جمع . وقرأ أبو بكر وحماد : « عشيراتكم » بالجمع . قال الأخفش : لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات ، وإنما يجمعونها على عشائر . وقرأ الحسن : « عشائركم » . وقرأ الباقون : ﴿**عشيرتكم** ﴾ . والاقتراف : الاكتساب ، وأصله : اقتطاع الشىء من مكانه ، والتركيب يدور على الدنو ، والكاسب يدنى الشىء من نفسه ويدخله تحت ملكه ، والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها . والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان . ومن غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال : إن المراد بالتجارة فى هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهنّ خاطبا ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهنّ وقد زادهن مقامى كسادا

وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ . والمراد بالمساكن التى يرضونها : المنازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله ، و ﴿ **أحب** ﴾ خبر ﴿ **كان** ﴾ أى كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد فى سبيل الله ﴿ **فتربصوا** ﴾ أى انتظروا ﴿ **حتى يأتى الله بأمره** ﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم ، وقيل المراد بأمر الله سبحانه : القتال . وقيل : فتح مكة وفيه بعد ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح . وفى هذا وعيد شديد ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى الخارجين عن طاعته ، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب: أنا أسقى الحاج ، وقال طلحة أخو بنى عبد الدار :

(١) فى المطبوعة : « البلاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، فأنزلت ﴿ **لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية قال : هى الهجرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **اقترفتموها** ﴾ قال : أصبتموها. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حتى يأتى الله بأمره** ﴾ قال: بالفتح فى أمره بالهجرة ، هذا كله قبل فتح مكة . وأخرج البيهقى من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وهى تؤكد معنى هذه الآية ، وقد تقدم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء .

﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)** ﴾ .

المواطن : جمع موطن ، ومواطن الحرب : مقاماتها ، والمواطن التى نصر الله المسلمين فيها هى : يوم بدر وما بعده من المواطن التى نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين . ﴿ **ويوم حنين** ﴾ معطوف على ﴿**مواطن**﴾ بتقدير مضاف: إما فى الأول وتقديره : فى أيام مواطن ، أو فى الثانى وتقديره : وموطن يوم حنين ، لئلا يعطف الزمان على المكان، ورد بأنه لا استبعاد فى عطف الزمان على المكان فلا يحتاج إلى تقدير . وقيل : إن ﴿ **يوم حنين** ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ﴿ **نصركم** ﴾ أى ونصركم يوم حنين ، ورجح هذا صاحب الكشاف ، قال : وموجب ذلك أن قوله : ﴿ **إذ أعجبتكم** ﴾ بدل من ﴿ **يوم حنين** ﴾ ، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح ؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن ، ولم يكونوا كثيرا فى جميعها ، ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ما ثبت للمعطوف ، كما تقول : جاءنى زيد وعمرو مع قومه . أو فى ثيابه أو على فرسه ، وقيل : إن ﴿ **إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ ليس ببدل من ﴿ **يوم حنين** ﴾ بل منصوب بفعل مقدر، أى اذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم . وحنين : واد بين مكة والطائف [1] ، وانصرف على أنه اسم للمكان ، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

(١) راجع الكشاف ٢/ ٢٥٩ .

وإنما أعجب من أعجب المسلمين بكثرتهم؛ لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أحد عشر ألفا . وقيل : ستة عشر ألفا فقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم ، بل انهزموا ، وثبت رسول الله ﷺ ، وثبت معه طائفة يسيرة ، منهم : عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث ، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر . والإغناء : إعطاء ما يدفع الحاجة ، أى لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم ولم تفدكم . قوله : ﴿ **بما رحبت** ﴾ الرحب بضم الراء : السعة ، والرحب بفتح الراء : المكان الواسع ، والباء : بمعنى : «مع » ، و « ما » مصدرية ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، والمعنى : أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف والوجل . وقيل : إن الباء بمعنى : « على » أى على رحبها ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ أى انهزمتم حال كونكم مدبرين ، أى مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم .

قوله : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين . والمراد بالمؤمنين : هم الذين لم ينهزموا . وقيل : الذين انهزموا . والظاهر : جميع من حضر منهم ؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا .

قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ هم الملائكة . وقد اختلف فى عددهم على أقوال : قيل : خمسة آلاف . وقيل : ثمانية آلاف . وقيل : ستة عشر ألفا . وقيل غير ذلك ، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوّة . واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا ؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ، وأنهم إنما حضروا فى غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين ، وإدخال الرعب فى قلوب المشركين ﴿ **وعذب الذين كفروا** ﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبى الذرية ، والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب ، وسمى ما حل بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لابد من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ما وقع عليهم وتعظيمًا له : ﴿ **ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء** ﴾ أى من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿ **والله غفور** ﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ﴿ **رحيم** ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: حنين ما بين مكة والطائف ، قاتل نبى الله هوازن وثقيف ، وعلى هوازن مالك بن عوف ، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفى . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم ، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادى أحياء العرب : « إلىّ إلىّ » ، فوالله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه ، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم :« يا أنصار الله وأنصار رسوله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله » فجثوا يبكون وقالوا : يا رسول الله ، ورب

الكعبة إليك والله ؛ فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدى رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليهم (١). وأخرج البيهقى فى الدلائل ، عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ قال الربيع : وكانوا اثنى عشر ألفا ، منهم ألفان من أهل مكة (٢) . وأخرج الطبرانى ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار . فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما ، فقال : «ناولنى كفا من تراب » ، فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا ، وولى المشركون أدبارهم . ووقعة حنين مذكورة فى كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك (٣) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ قال : هم الملائكة ﴿ **وعذب الذين كفروا** ﴾ قال : قتلهم بالسيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : فى يوم حنين أمدّ الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويومئذ سمى الله الأنصار مؤمنين قال : فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم قال : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد (٤) الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم (٥) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)** ﴾ .

---

(١) ابن إسحاق ٤١/ ٨٦ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/ ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) أحمد ١/ ٤٥٣ ، ٤٥٤ وقال الشيخ شاكر فى تحقيقه للمسند (٤٣٣٦) : « إسناده صحيح » والطبرانى (١٠٣٥١) وصححه الحاكم ٢/ ١١٧ وقال الذهبى : « الحارث وعبد الله ذوا مناكير هذا منها ثم فيه إرسال » والبيهقى فى الدلائل ٥/ ١٤٢ وقال الهيثمي فى المجمع ٦/ ١٨٣ « رجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث ابن حصيرة وهو ثقة » .

(٤) فى المطبوعة : «النجاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن البيهقى وابن كثير وابن إسحاق . والبجاد: الكساء .

(٥) ابن إسحاق ٤/ ٩٢ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ١٤٦ وابن كثير فى البداية والنهاية ٤/ ٣٣٢ .

النجس : مصدر لا يثنى ولا يجمع ، يقال: رجل نجس ، وامرأة نجس ، ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس، ونساء نجس . ويقال : نجس ونَجُس بكسر الجيم وضمها . ويقال : نِجْس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك. قيل : لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس . وقيل : ذلك أكثرى لا كلىّ. و﴿ **المشركون** ﴾ مبتدأ ، وخبره : المصدر ، مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة ، أو على تقدير مضاف ، أى ذوو نجس ؛ لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقال قتادة ومعمر وغيرهما : إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولايتجنبون النجاسات .

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات ، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية، وروى عن الحسن البصرى وهو محكى عن ابن عباس . وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات ؛ لأن الله سبحانه أحلّ طعامهم ، وثبت عن النبى ﷺ فى ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم ، فأكل فى آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم فى مسجده .

قوله : ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام** ﴾ الفاء للتفريع ، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم . والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، روى ذلك عن عطاء ، فيمنعون عنده من جميع الحرم ، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد ؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد . وقال الشافعى : الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام ، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه ﷺ لثمامة بن أثال فى مسجده ، وإنزال وفد ثقيف فيه . وروى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى ، وزاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة ، وقيده الشافعى بالحاجة . وقال قتادة : إنه يجوز ذلك للذمى دون المشرك. وروى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد . ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى المسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك ، فهو من باب قولهم : لا أرينك هاهنا .

قوله : ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه سنة تسع ، وهى التى حج فيها أبو بكر على الموسم . والثانى : أنه سنة عشر قاله قتادة ، قال ابن العربى : وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، ومن العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العام الذى وقع فيه الأذان ، ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن

المراد اليوم الذى دخل فيه . انتهى . ويجاب عنه بأن الذى يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه ، فإن الإشارة بقوله : ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء . وهكذا فى المثال الذى ذكره ، المراد النهى عن دخولها بعد يوم الدخول الذى وقع فيه الخطاب ، والأمر ظاهر لا يخفى ، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر ، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا ، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع ، وعلى هذا يحمل قول قتادة . وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد ، أعنى : قوله ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ قائلا : إن النهى مختص بوقت الحج والعمرة فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول . ويجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده ، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص . قوله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ العيلة : الفقر ، يقال : عال الرجل يعيل : إذا افتقر ، قال الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عايلة » وهو مصدر : كالقايلة والعافية والعاقبة ؛ وقيل : معناه : خصلة شاقة ، يقال : عالنى الأمر يعولنى ، أى شقّ علىّ واشتد . وحكى ابن جرير الطبرى أنه يقال : عال يعول : إذا افتقر ، وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ الآية . وقال عكرمة : أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض ، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به . وقيل : أغناهم بالفىء ، وفائدة التقييد بالمشيئة : التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع ﴿ **إن الله عليم** ﴾ بأحوالكم ﴿ **حكيم** ﴾ فى إعطائه ومنعه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ الآية ، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف . قال أبو الوفاء بن عقيل : إن قوله : ﴿ **قاتلوا** ﴾ أمر بالعقوبة ، ثم قال : ﴿ **الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ فبين الذنب الذى توجبه العقوبة ، ثم قال : ﴿ **ولا باليوم الآخر** ﴾ فأكد الذنب فى جانب الاعتقاد ، ثم قال : ﴿ **ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله** ﴾ فيه زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال ، ثم قال : ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم قال : ﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فبين الغاية التى تمتد إليها العقوبة . انتهى .

قوله : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ بيان للموصول مع ما فى حيزه ، وهم أهل التوراة والإنجيل . قوله : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد** ﴾ الجزية وزنها فعلة من جزى يجزى : إذا كافأ عما أسدى إليه ، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن . وقيل : سميت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، أى يقضوه ، وهى فى الشرع : ما يعطيه المعاهد على عهده ، و﴿ **عن يد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى: عن يد مواتية غير ممتنعة . وقيل : معناه : يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا . وقيل : معناه: نقد غير نسيئة . وقيل : عن قهر . وقيل : معناه : عن إنعام منكم عليهم ؛ لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم . وقيل : معناه : مذمومون . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب . وقال الأوزاعى ومالك : إن الجزية تأخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان ، ويدخل فى أهل الكتاب على القول الأول المجوس . قال ابن المنذر : لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم .

واختلف أهل العلم فى مقدار الجزية ، فقال عطاء : لا مقدار لها ، وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه ، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال : أقلها دينار وأكثرها لا حد له . وقال الشافعى : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شىء ، وبه قال أبو ثور . قال الشافعى : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم . وقال مالك : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب . وأربعون درهما على أهل الورق ، الغنى والفقير سواء ، ولو كان مجوسيا لا يزيد ولا ينقص . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون . والكلام فى الجزية مقررّ فى مواطنه ، والحق من هذه الأقوال قد قررناه فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا .

قوله : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والصغار : الذل ، والمعنى : إن الذمى يعطى الجزية حال كونه صاغرا ، قيل : وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم قاعد . وبالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله فى قوله: ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم » . قال ابن كثير : تفرد به أحمد مرفوعا . والموقوف أصح [1] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن

(١) أحمد ٣/ ٣٣٩ ، ٣٩٢ ، وقال ابن كثير ٣/ ٣٨٢ : «تفرد به أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادًا».

أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت ، قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾ قال : فأنزل الله عليهم المطر ، وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وأخرج ابن مردويه عنه قال: فأغناهم الله من فضله وأمرهم بقتال أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **وإن خفتم عيلة** ﴾ قال : الفاقة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ قال: بالجزية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الضحاك مثله . وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ قال: قذر .وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : من صافحهم فليتوضأ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ قال : نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال : نزلت فى كفار قريش والعرب : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ ، وأنزلت فى أهل الكتاب : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ يعنى : الذين لا يصدقون بتوحيد الله ﴿**ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ يعنى : الخمر والحرير ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ يعنى : دين الإسلام ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ يعنى: مذللون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال : عن قهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال : من يده ولا يبعث بها غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال :عن قدرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ قال: يمشون بها متلتلين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : يلكزون (٢) وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سلمان فى الآية قال : غير محمودين .

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ** ﴾

(١) ابن جرير : ١٠/ ٧٧ والبيهقى ٩/ ١٨٥ .

(٢) لكزه : ضربه بيده على صدره . وقيل : على جميع البدن . اللسان ٥/ ٤٠٦ .

عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله** ﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين و ﴿ **عزير** ﴾ مبتدأ و ﴿ **ابن الله** ﴾ خبره ، وقد قرأ عاصم والكسائى ﴿ **عزير** ﴾ بالتنوين ،وقرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا. وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] قال أبو على الفارسى: وهو كثير فى الشعر ، وأنشد ابن جرير الطبرى :

لتجدينى بالأمير برا وبالقناة مدعسا مكرا إذا غطيف السلمى فرا

وظاهر قوله : ﴿ **وقالت اليهود** ﴾ أن هذه المقالة لجميعهم . وقيل : هو لفظ خرج على العموم ، ومعناه : الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم . وقال النقاش : لم يبق يهودى يقولها بل قد انقرضوا . وقيل : إنه قال ذلك للنبى ﷺ جماعة منهم ، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لأن قول بعضهم لازم لجميعهم . قوله : ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب ، فكان ذلك سببا لهذه المقالة ، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون فى الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان ، كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الإنجيل ، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم ، أو لم يظهر أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة . قيل : وهذه المقالة إنما هى لبعض النصارى لا لكلهم .

قوله: ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة . ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم: بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها. وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما فى: كتبت بيدى ومشيت برجلى ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ [البقرة: ٧٩]،وقوله: ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] . وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف: ٥] ، وقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾ ، [الفتح : ١١].

قوله : ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا** ﴾ المضاهاة : المشابهة ، قيل : ومنه قول العرب

امرأة ضهياء ، وهى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال . قال أبو على الفارسى : من قال ﴿ **يضاهئون** ﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ ؛ لأن الهمزة فى ضاهأ أصلية ، وفى ضهياء زائدة كحمراء ، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء . ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم : الأول : أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم: واللات والعزى ومناة بنات الله . القول الثانى : أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين : إن الملائكة بنات اللّه . الثالث : أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيرا ابن اللّه وأن المسيح ابن اللّه . قوله : ﴿ **قاتلهم الله** ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ؛ لأن من قاتله الله هلك . وقيل : هو تعجب من شناعة قولهم . وقيل : معنى قاتلهم الله : لعنهم اللّه ، ومنه قول أبان بن تغلب :

قاتلها اللّه تلحانى وقد علمت أنى لنفسى إفسادى وإصلاحى

وحكى النقاش أن أصل قاتل اللّه : الدعاء . ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعى :

يا قاتل اللّه ليلى كيف تعجبنى وأخبر الناس أنى لا أباليها

﴿ **أنى يؤفكون** ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله : ﴿ **اتخذوا أحبارهم** [1] **ورهبانهم أربابا من دون اللّه** ﴾ الأحبار : جمع حبر . وهو الذى يحسن القول . ومنه ثوب محبر . وقيل : جمع حبر بكسر الحاء . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء . وقال الفراء : الفتح والكسر لغتان. وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر: العالم. والحبر بالفتح : العالم. والرهبان : جمع راهب مأخوذ من الرهبة ، وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود . ومعنى الآية : أنهم لما أطاعوه فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب . قوله : ﴿ **والمسيح ابن مريم** ﴾ معطوف على رهبانهم ، أى اتخذه النصارى ربًا معبودًا . وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيرا [2] ربا معبودًا .

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين اللّه ، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج اللّه وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون اللّه ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة ؛ والتمرة بالتمرة ، والماء بالماء ؛ فيا عباد اللّه ، ويا أتباع محمد بن عبد اللّه ، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا ، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد اللّه لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا

(١) فى المطبوعة : «أحبار» . (٢) فى المخطوطة : «عزير» والصحيح «عزيرًا» بالنصب .

عليه وأفاده . فعلتم بما جاؤوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة ، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فأعرتموهما آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهاما مريضة ، وعقولا مهيضة ، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا ــ أرشدكم الله وإياى ــ كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم ، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آبن فى دينه كمخاطر (١)

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل ، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية .

قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده ، أو وما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا . قوله : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ صفة ثانية لقوله : ﴿ **إلها** ﴾ : ﴿ **سبحانه عما يشركون** ﴾ أى تنزيها له عن الإشراك فى طاعته وعبادته .

قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وهو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال الحق ونبوة نبى الصدق ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره** ﴾ أى دينه القويم . وقد قيل : كيف دخلت إلا الاستثنائية على ﴿ **يأبى** ﴾ ، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا . قال الفراء : إنما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد . وقال الزجاج : إن العرب تحذف مع « أبى » . والتقدير : ويأبى الله كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال على بن سليمان : إنما جاز هذا فى أبى ، لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى . قال النحاس : وهذا أحسن . كما قال الشاعر :

وهل لى أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا

وقال صاحب الكشاف : إن أبى قد أجرى مجرى لم يرد: أى ولا يريد إلا أن يتم نوره .

(١) آبن : يقال : أبن الرجل يأبنه ويأبُنُهُ أبنا أى اتهمه وعابه . اللسان ١٣/٣.

قوله ﴿ **ولوكره الكافرون** ﴾ معطوف على جملة قبله مقدرة ، أى أبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا [١] . ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى بما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها اللّه لعباده ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره** ﴾ أى ليظهر رسوله ، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين ، وقد وقع ذلك وللّه الحمد ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ كما قدمنا ذلك .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى رسول اللّه ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك ابن الصيف ، فقالوا: كيف نتبعك وقد [٢] تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن اللّه ؟ فأنزل اللّه ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن اللّه** ﴾ الآية [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال : كن نساء بنى إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين ويعتزلن ويذكرن ما فضل اللّه به بنى إسرائيل وما أعطاهم ، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر ، فحرق التوراة وخرب بيت المقدس ، وعزير يومئذ غلام ، فقال عزير : أو كان هذا ؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل يتعبد فيها . وجعل لا يخالط الناس. فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهى تبكى . فقال : يا أمة ، اتقى اللّه واحتسبى واصبرى أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت ؟ فقالت : يا عزير ، أتنهانى أن أبكى وأنت قد خلفت بنى إسرائيل ولحقت بالجبال والوحش ؟ ثم قالت : إنى لست بامرأة ولكنى الدنيا . وإنه سينبع فى مصلاك عين وتنبت شجرة ، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة ، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا ، فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة ، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه اللّه التوراة ، فجاء فأملاها على الناس ، فعند ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . تعالى اللّه عن ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فذكر قصة وفيها: أن عزيرا سأل اللّه بعد ما أنسى بنى إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يرد الذى نسخ من صدره . فبينما هو يصلى نزل نور من اللّه عز وجل فدخل جوفه ، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة . فأذن فى قومه فقال : يا قوم قد آتانى اللّه التوراة وردها إلى .

وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى فى قلبه فأنزلها اللّه عليه ، فبعد ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن : فلا أدرى عزير كان نبيا أم لا ؟ ولا أدرى ألعن تبع أم لا ؟ قال : ونسيت الثالثة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يضاهئون** ﴾ قال: يشبهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **قاتلهم**

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٦٥ .
(٢) فى المطبوعة: « وقت »، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ وابن جرير ١٠/ ٧٨.

اللّه ﴾ قال : لعنهم اللّه وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه** ﴾ فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه. وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه» (١). وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير(٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أبى البخترى قال : سأل رجل حذيفة فقال : أرأيت قوله: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه** ﴾ أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : أحبارهم : قراؤهم ، ورهبانهم : علماؤهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. وأخرج أيضا عن الفضيل بن عياض قال : الأحبار : العلماء، والرهبان : العباد.

وأخرج أيضا عن السدّى فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم** ﴾ قال : يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم** ﴾ يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج أبوالشيخ عن السدّى ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ يعنى : بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)** ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين فقال : ﴿ **إن كثيرا من الأحبار** ﴾ إلى آخره ، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل : أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة ، وأثبت هذا للكثير منهم ؛ لأن فيهم من لم يتلبس بذلك، بل بقى على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل ولاميل إلى حطام الدنيا ، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان، فاللّه المستعان.

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « غريب » . (٢) ابن جرير ١٠/ ٨٠ .

(٣) البيهقى فى الشعب (٩٣٩٤) وابن جرير ١٠/ ٨١ ، ٨٢ .

قوله : ﴿ **ويصدّون عن سبيل الله** ﴾ أى عن الطريق إليه وهو دين الإسلام ، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل . قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قيل : هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار والرهبان ، وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع . وقيل : هم من يفعل ذلك من المسلمين ، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك . وأصل الكنز فى اللغة : الضم والجمع ، ولا يختص بالذهب والفضة . قال ابن جرير : الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . انتهى . ومنه ناقة كناز ، أى مكتنزة اللحم ، واكتنز الشىء : اجتمع .

واختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم:هو كنز ، وقال آخرون : ليس بكنز . ومن القائلين بالقول الأوّل أبو ذر ، وقيده بما فضل عن الحاجة . ومن القائلين بالقول الثانى عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز .

قوله : ﴿ **ولا ينفقونها فى سبيل الله** ﴾ اختلف فى وجه إفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين ، هما : الذهب والفضة ، فقال ابن الأنبارى : إنه قصد إلى الأعمّ الأغلب وهو الفضة قال : ومثله قوله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة ﴾ [البقرة : ٤٥] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ ، ومثله قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾[الجمعة : ١١] أعاد الضمير إلى التجارة ؛ لأنها الأهم . وقيل : إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه ، والعرب تؤنث الذهب وتذكره . وقيل : إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله ﴿ **يكنزون** ﴾ . وقيل : إلى الأموال . وقيل : للزكاة . وقيل : إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى . وهو كثير فى كلام العرب ، وأنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل : راضون ، ومثله قول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ... بريا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل : بريين ، ومثله قول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ... ـود ما لم يعاص كان جنونا

ولم يقل : يعاصا . وقيل : إن إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ ؛ لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية ، وعدّة كثيرة ، ودنانير ودراهم . فهو كقوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : ٩] . وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء . وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما فى

تحريم الكنز . قوله : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ هو خبر الموصول . وهو من باب التهكم بهم كما فى قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . وقيل : إن البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغمّ .

ومعنى ﴿ **يوم يحمى عليها فى نار جهنم** ﴾ : أن النار توقد عليها وهى ذات حمى وحرّ شديد . ولو قال : يوم تحمى ، أى الكنوز لم يعط هذا المعنى . فجعل الإحماء للنار مبالغة . ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وقرأ ابن عامر : « تحمى » بالمثناة الفوقية ، وقرأ أبو حيوة : «فيكوى » بالتحتية . وخص الجباه ، والجنوب والظهور لكون التألم بكيها أشدّ لما فى داخلها من الأعضاء الشريفة . وقيل : ليكون الكىّ فى الجهات الأربع : من قدّام ، وخلف ، وعن يمين ، وعن يسار . وقيل : لأن الجمال فى الوجه ، والقوّة فى الظهر والجنبين ، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوّة . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف . قوله : ﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم** ﴾ أى يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، أى كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ ﴿**فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ ما : مصدرية أو موصولة ، أى ذوقوا وباله ، وسوء عاقبته ، وقبح مغبته ، وشؤم فائدته .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **إن كثيرا من الأحبار والرهبان** ﴾ يعنى : علماء اليهود والنصارى ﴿**ليأكلون أموال الناس بالباطل** ﴾ والباطل : كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس . وذلك قول الله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ [البقرة : ٧٩] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم ، وكل مال لا تؤدى زكاته كان على ظهر الأرض أو فى بطنها فهو كنز ، وكل مال أدّيت زكاته فليس بكنز ، كان على ظهر الأرض أو فى بطنها . وأخرجه عنه ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ من وجه آخر . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدّى والخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة عنه موقوفا . وأخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال ، ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعات الله[1] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : ليس بكنز ما أدّى زكاته . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه[2].

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٦١) وابن ماجة فى الزكاة (١٧٨٧) والبيهقى ٤/ ٨٢ .
(٢) البيهقى ٤/ ٨٣ .

وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى اللّه ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » ، فكبر عمر ، ثم قال له النبى ﷺ : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »[١] . وقد أخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة عن سالم بن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان [٢] . وحكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، وقال : هى خاصة وعامة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : حلية السيوف من الكنوز ما أحدّثكم إلا ما سمعت[٣] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز أنهما قالا فى قوله : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ إنها نسختها الآية الأخرى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [التوبة : ١٠٣]. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح ، ثم أحمى عليها فى نار جهنم ، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار»[٤] . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبى ذّر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض ؟ فقال : كنا بالشام فقرأت : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ الآية ، فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا فى أهل الكتاب ، قلت : إنها لفينا وفيهم [٥] .

---

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٦٤) وأبو يعلى (٢٤٩٩) وصححه الحاكم ١/ ٤٠٩ على شرط الشيخين : ووافقه الذهبى، و٢/ ٣٣٣ ووافقه الذهبى أيضا ، والبيهقى ٤/ ٨٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٤) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٦) وقال فى الزوائد : « عبد اللّه بن عمرو بن مرة ضعفه النسائى ، ووثقه الحاكم وابن حبان ». وقال ابن معين : « لا بأس به ».

(٣) الطبرانى (٧٥٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع : ٣/ ٧٠ ، « وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس » .

(٤) أحمد ٢/ ٢٦٢ ، ٢٧٦ ومسلم فى الزكاة (٩٨٧/ ٢٤) .

(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٢ والبخارى فى الزكاة (١٤٠٦) .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن اللّه سبحانه لما حكم فى كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسىء والكبيسة فأخبرنا اللّه بما هو حكمه فقال: ﴿ **إن عدّة الشهور** ﴾ أى عدد شهور السنة عند اللّه فى حكمه وقضائه وحكمته اثنا عشر شهرا. قوله : ﴿ **فى كتاب اللّه** ﴾ أى فيما أثبته فى كتابه . قال أبو على الفارسى : لا يجوز أن يتعلق فى ﴿ **فى كتاب اللّه**﴾ بقوله : ﴿ **عدّة الشهور** ﴾ . للفصل بالأجنبى وهو الخبر ، أعنى ﴿ **اثنا عشر شهرا** ﴾ ، فقوله : ﴿ **فى كتاب اللّه** ﴾ ، وقوله : ﴿**يوم خلق**﴾ بدل من قوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ والتقدير : إن عدة الشهور عند اللّه فى كتاب اللّه يوم خلق السموات والأرض ، وفائدة الإبدالين تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند اللّه فى كتاب اللّه ، وثابت فى علمه فى أوّل ما خلق اللّه العالم . ويجوز أن يكون ﴿ **فى كتاب اللّه**﴾ صفة ﴿ **اثنا عشر** ﴾ أى اثنا عشر مثبتة فى كتاب اللّه وهو اللوح المحفوظ . وفى هذه الآية بيان أن اللّه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب . وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التى يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما ، وبعضها أكثر ، وبعضها أقل .

قوله: ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ هى ذى القعدة ،وذو الحجة،والمحرم،ورجب،ثلاثة سرد وواحد فرد. كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة [1] . قوله : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم،والحساب الصحيح، والعدد المستوفى . قوله: ﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أى فى هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها ، وقيل : إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها،وإن اللّه نهى عن الظلم فيها،والأوّل أولى .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية،ولقوله:﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر اللّه ولا الشهر الحرام ﴾ [المائدة : ٢] ،

(١) أحمد ٥/ ٣٧ والبخارى فى التفسير (٤٦٦٢) وفى بدء الخلق (٣١٩٧) ومسلم فى القسامة (١٦٧٩/ ٢٩) وأبو داود فى الحج (١٩٤٧) وكلهم عن أبى بكرة رضى الله عنه .

ولقوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين**﴾ الآية ، وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف . ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة ، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم . كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه . وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال،والمحرم إنما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمامه. وبهذا يحصل الجمع .

قوله : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ أى جميعا ، وهو مصدر فى موضع الحال . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع . ﴿ **كما يقاتلونكم كافة** ﴾ أى جميعا ، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين ، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض . ﴿ **واعلموا أن اللّه مع المتقين** ﴾ أى ينصرهم ويثبتهم،ومن كان اللّه معه فهو الغالب ، وله العاقبة والغلبة .

قوله : ﴿ **إنما النسىء زيادة فى الكفر** ﴾ قرأ نافع فى رواية ورش عنه: « النسىّ » بياء مشدّدة بدون همز . وقرأ الباقون بياء بعدها همزة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده. وهو مشتق من نسأه ، وأنسأه: إذا أخره،حكى ذلك الكسائى.قال الجوهرى : النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك : نسأت الشىء فهو منسوء : إذا أخرته ، ثم تحوّل منسوء إلى نسىء كما تحوّل مقتول إلى قتيل .قال ابن جرير : فى النسىء بالهمزة معنى الزيادة يقال : نسأ ينسأ : إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى : ﴿نسوا اللّه فنسيهم ﴾[التوبة:٦٧] وردّ على نافع قراءته . وكانت العرب تحرّم القتال فى الأشهر الحرم المذكورة ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها . فإذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر ، وهكذا فى غيره ، وكان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض ، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال . وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها وتشتدّ حاجتهم وتعظم فاقتهم . فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هو معنى النسىء الذى كانوا يفعلونه . وقد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك ، فقيل : هو رجل من بنى كنانة يقال له حذيفة بن عتيد . ويلقب القلمس ، وإليه يشير الكميت بقوله :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراما

وفيه يقول قائلهم :

ومنا ناسئ الشهر القلمس

وقيل : هو عمرو بن لحىّ . وقيل : هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة وسمى اللّه سبحانه النسىء زيادة فى الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم ، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر . قوله : ﴿**يضلّ به الذين كفروا**﴾ قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر « يضلّ » على البناء للمعلوم . وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول . ومعنى القراءة الأولى : أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسىء ، ومعنى القراءة الثانية : أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة ، وقد اختار القراءة الأولى أبوحاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب : « يضل » بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول ومفعوله محذوف . ويجوز أن يكون فاعله هو اللّه سبحانه ومفعوله الموصول . وقرئ بفتح الياء والضاد من ضل يضلّ . وقرئ « نضل » بالنون .

قوله : ﴿ **يحلونه عاما ويحرّمونه عاما** ﴾ الضمير راجع إلى النسىء ، أى يحلون النسىء عاما ويحرّمونه عاما، أو إلى الشهر الذى يؤخرونه ويقاتلون فيه ، أى يحلونه عاما بإبداله بشهر آخر من شهور الحل ، ويحرّمون عاما أى يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته . قوله : ﴿ **ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه** ﴾ أى لكى يواطئوا ، والمواطأة الموافقة ، يقال : تواطأ القوم على كذا ، أى توافقوا عليه واجتمعوا . والمعنى : إنهم لم يحلوا شهرًا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة. قال قطرب : معناه عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرّم فى التحريم . وكذا قال الطبرى . قوله:﴿**فيحلوا ما حرّم اللّه** ﴾ أى من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها ﴿ **زين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أى زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التى يعملونها ، ومن جملتها النسىء . وقرئ على البناء للفاعل . ﴿ **واللّه لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ أى المصرّين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب ، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها اللّه سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذوالقعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » [(١)] . وأخرج نحوه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث ابن عمر[(٢)] . وأخرج نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا البزار وابن جرير وابن مردويه من حديث أبى هريرة [(٣)] . وأخرجه أحمد وابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن

---

(١) سبق تخريجه. فى المطبوعة « أبى بكر»، والصواب: ما أثبتناه من المخطوطة ومن البخارى ومسلم وغيرهما.
(٢ ، ٣) ابن جرير ١٠/ ٨٨ .

عمه مرفوعا مطوّلا [١] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ قال : المحرّم ، ورجب ، وذوالقعدة، وذو الحجة . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إنما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله** ﴾ ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرما ، وعظم حرماتهن ، وجعل الذين فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿ **فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم** ﴾ قال: فى كلهنّ ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ يقول جميعا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ قال : نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين ، ولا يصيبون الحج إلا فى كل سنة وعشرين سنة مرة، وهى النسىء الذى ذكره الله فى كتابه ، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام، فسماه الله الحجّ الأكبر ، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل ، واستقبل الناس الأهلة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٢] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال : « إنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما ويستحلون صفر، ويحرّمون صفر عاما ويستحلون المحرّم ، وهى النسىء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكنانى يوافى الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر الأوّل العام حلال فيحله للناس . فيحرم صفر عاما ، ويحرّم المحرّم عاما . فذلك قوله تعالى ﴿ **إنما النسىء زيادة فى الكفر** ﴾ الآية [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: المحرّم كانوا يسمونه صفر ، وصفر يقولون : صفران الأوّل والآخر ، يحلّ لهم مرّة الأوّل ، ومرة الآخر . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كانت النساءة حى من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم ، فكان آخرهم رجلا يقال له : القلمس . وهو الذى أنشأ المحرم .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**

---

(١) أحمد ٥/ ٧٢ ، ٧٣ ، وذكر الطبرانى جزءاً منه (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع : ٣/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤/ ١١٩ ، ١٧٥ « أبو حرة الرقاشى وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وفيه على بن زيد وفيه كلام » ، وقد اعتمد الحافظ فى التقريب قول أبى داود فقال : « أبو حرة ثقة ، وعلى ضعيف، لكن للحديث شواهد » .

(٢) رواه الهيثمى فى المجمع عن عبد الله بن عمر وليس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٧/ ٣٢ وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات» .

(٣) ابن جرير ١٠/ ٩١ ، ٩٢ .

أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين فى قتالهم ، والاستفهام فى ﴿**ما لكم** ﴾ للإنكار والتوبيخ ، أى أىّ شىء يمنعكم عن ذلك ، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفر : هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث . قوله : ﴿ **اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ أصله تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، وجىء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادّاركوا ، واطيرتم ، واطيروا ، وأنشد الكسائى :

توالى الضجيع إذا ما اشتاقها حضرا عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل ، ومعناه : تباطأتم ، وعدّى بـ « إلى » لتضمنه معنى الميل والإخلاد. وقيل : معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ : « آثاقلتم » على الاستفهام ، ومعناه : التوبيخ ،والعامل فى الظرف «ما» فى ﴿ **ما لكم** ﴾ من معنى الفعل ، كأنه قيل: ما يمنعكم ، أو ما تصنعون إذا قيل لكم ؟ و﴿ **إلى الأرض** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اثاقلتم** ﴾ وكما مرّ . قوله : ﴿ **أرضيتم بالحياة الدنيا** ﴾ أى بنعيمها بدلا من الآخرة كقوله تعالى:﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف : ٦٠] أى بدلا منكم ، ومثله قول الشاعر :

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان

أى بدلا من ماء زمزم ، والطهيان : عود ينصب فى ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد ، ومعنى : ﴿ **من الآخرة** ﴾ أى فى جنب الآخرة ، وفى مقابلها ﴿ **إلا قليل** ﴾ أى إلا متاع حقير لا يعبأ به ، ويجوز أن يراد بالقليل العدم ؛ إذ لا نسبة للمتناهى الزائل إلى غير

المتناهى الباقى ، والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل ؛ إذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ والتثاقل ، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل،وهو كثير شائع .

قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم** ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد موكد لمن ترك النفير مع رسول اللّه ﷺ ﴿ **يعذبكم عذابا أليما** ﴾ أى يهلككم بعذاب شديد مؤلم ، قيل : فى الدنيا فقط . وقيل : هو أعم من ذلك . قوله: ﴿ **ويستبدل قوما غيركم**﴾ أى يجعل لرسله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم . واختلف فى هؤلاء القوم من هم ؟ فقيل : أهل اليمن. وقيل : أهل فارس،ولا وجه للتعين بدون دليل.قوله:﴿ **ولا تضرّوه شيئا** ﴾ معطوف على ﴿ **يستبدل** ﴾، والضمير قيل : للّه ، وقيل : للنبى ﷺ ، أى ولا تضرّوا اللّه بترك امتثال أمره بالنفير شيئا ، أو لا تضرّوا رسول اللّه بترك نصره والنفير معه شيئا ﴿ **واللّه على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم .

قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره اللّه** ﴾ أى إن تركتم نصره فاللّه متكفل به ، فقد نصره فى مواطن القلة ، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر ، أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ **ثانى اثنين** ﴾ أى أحد اثنين ، وهما رسول اللّه ﷺ وأبو بكر الصديق رضى اللّه عنه ، وقرئ بسكون الياء . قال ابن جنى : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف قال ابن عطية : فهى كقراءة الحسن ما بقى من الربا ، وكقول جرير :

هو الخليفة فارضوا ما رضيه لكم ماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ بدل من ﴿ **إذ أخرجه** ﴾ بدل بعض ، والغار : ثقب فى الجبل المسمى ثورا ، وهو المشهور بغار ثور ، وهو جبل قريب من مكة ، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير والحديث . قوله : ﴿ **إذ يقول لصاحبه** ﴾ بدل ثان ، أى وقت قوله لأبى بكر : ﴿ **لا تحزن إن اللّه معنا** ﴾ أى دع الحزن فإن اللّه بنصره وعونه وتأييده معنا ، ومن كان اللّه معه فلن يغلب ، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن . قوله : ﴿ **فأنزل اللّه سكينته عليه** ﴾ السكينة : تسكين جأشه وتأمينه -حتى ذهب روعه وحصل له الأمن ، على أن الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ لأبى بكر ؛ وقيل : هو للنبى ﷺ ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه : عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ، ويؤيد كون الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ للنبى ﷺ الضمير فى ﴿ **وأيده بجنود لم تروها** ﴾ فإنه للنبى ﷺ لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر . وقيل : إنه لا محذور فى رجوع الضمير من ﴿ **عليه** ﴾ إلى أبى بكر ، ومن ﴿**وأيده**﴾ إلى النبى ﷺ ، فإن ذلك كثير فى القرآن وفى كلام العرب ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ أى كلمة الشرك ، وهى دعوتهم إليه،ونداؤهم للأصنام ﴿ **وكلمة اللّه هى العليا** ﴾ قرأ الأعمش ويعقوب بنصب «كلمة »

حملا على جعل ، وقرأ الباقون برفعها على الاستئناف . وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم، وفى ضمير الفصل ، أعنى : ﴿ **هى** ﴾ تأكيد لفضل كلمته فى العلوّ وأنها المختصة به دون غيرها ، وكلمة الله هى كلمة التوحيد ، والدعوة إلى الإسلام ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أى غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب .

ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ماذكره عقبه بالأمر الجزم فقال : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ أى حال كونكم خفافا وثقالا ، قيل : المراد منفردين أو مجتمعين . وقيل : نشاطا وغير نشاط . وقيل : فقراء وأغنياء . وقيل : شبابا وشيوخا . وقيل : رجالا وفرسانا . وقيل : من لا عيال له ومن له عيال ، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع ، ومن يتأخر كالجيش ، وقيل غير ذلك . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى ، لأن معنى الآية : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . قيل : وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ [التوبة : ٩١] . وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ الآية [التوبة : ١٢٢] . وقيل : هى محكمة وليست بمنسوخة ، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ﴾ [النور : ٦١] . وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ من باب التخصيص.لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله : ﴿**خفافا وثقالا** ﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم . قوله : ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله** ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد . فالفقراء يجاهدون بأنفسهم ، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم . والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها . وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدّو وبدفعه ، فإن كان لا يقوم بالعدّو إلا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد ﴿ **خير لكم** ﴾ أى خير عظيم فى نفسه ، وخير من السكون والدعة ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ ذلك وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة .

قوله: ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾. قال الزجاج : لو كان المدعو إليه ، فحذف لدلالة ما تقدّم عليه ، والعرض : ما يعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿ **وسفرا قاصدا** ﴾ عطف على ما قبله ، أى سفرا متوسطا بين القرب والبعد . وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿ **ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ قال أبو عبيدة وغيره : إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة ، يقال : منه شقة شاقة ، قال : الجوهرى : الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا : السفر البعيد ، وربما قالوه بالكسر . والمراد بهذا غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة.وقرأ عيسى بن عمر:«بعدت عليهم الشقة » بكسر العين والشين ﴿ **وسيحلفون بالله** ﴾ أى المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين : ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أى

لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بدّ منه ﴿ **لخرجنا معكم** ﴾ هذه الجملة سادّة مسدّ جواب القسم والشرط . قوله : ﴿ **يهلكون أنفسهم** ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ **سيحلفون** ﴾ لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه أو يكون حالا ، أى مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿**والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا** ﴾ الآية ، قال : هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وحين أمرهم بالنفير فى الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج . فأنزل الله ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ (١) .

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ قال : إن رسول الله ﷺ استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ وقد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم ، فقال المؤمنون : قد بقى ناس فى البوادى وقالوا : هلك أصحاب البوادى ، فنزلت ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ . وأخرج أبو داود وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا تنفروا** ﴾ الآية قال : نسختها ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله** ﴾ قال : ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث . يقول : فأنا فاعل ذلك به ، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثانى اثنين . وأخرج أبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعروة ؛ أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى ﷺ ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الحمل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار والذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه ، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمّ والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه السكينة من الله ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ الآية (٤) . وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال : قال أبو بكر : يارسول الله ، لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، لا تحزن إن الله معنا » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى فى قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ قال :

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٩٤ .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٦ ٢٥٠) وابن جرير ١٠/ ٩٥ وصححه الحاكم ٢/ ١١٨ وقال : « وعبد المؤمن بن خالد الحنفى من ثقات المراوزة » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/ ٤٨ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٥ ٢٥٠) والبيهقى ٩/ ٤٧ .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٧٨ .

هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثوراً . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر لأن النبىّ ﷺ لم تزل معه السكينة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخل النبىّ ﷺ وأبو بكر غار حراء ، فقال أبو بكر للنبىّ ﷺ : لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى وإياك ، فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر ؟ إن الله أنزل سكينته عليك وأيدنى بجنود لم يروها » . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر ، فأما النبىّ ﷺ فقد كانت عليه السكينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ قال: هى الشرك بالله ﴿ **وكلمة الله هى العليا** ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج الفريابى وأبو الشيخ عن أبى الضحى قال : أوّل ما أنزل من براءة ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ ثم نزل أوّلها وآخرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **خفافا وثقالا** ﴾ قال : نشاطا وغير نشاط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم فى الآية قال : مشاغيل وغير مشاغيل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : فى العسر واليسر . وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا وكهولا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال : شبابا وشيوخا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قالوا : إن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل فأنزل الله : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا ، وعلى ما كان منهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : جاء رجل زعموا أنه المقداد ، وكان عظيما سمينا ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى ، فنزلت : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها الله ، فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ الآية [التوبة : ٩١] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قيل له : ألا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ؟ فقال رجلان : قد علمت يا رسول الله ، أن النساء فتنة فلا تفتنا بهنّ فأذن لنا ، فأذن لهما ، فلما انطلقنا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأوّل آكل ، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه شىء فى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾ ونزل عليه : ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾ . ونزل عليه : ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ ونزل عليه : ﴿ إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ [التوبة : ٩٥] [1] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **لو كان عرضا قريبا** ﴾ قال: غنيمة قريبة ، ﴿ **ولكن بعدت**

(١) ابن جرير ١١ / ٣.

عليهم الشقة ﴾ قال : المسير . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾ .

الاستفهام فى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ ، حيث وقع منه الإذن لما استأذنه فى القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم فى عذره الذى أبداه ، ومن هو كاذب فيه . وفى ذكر العفو عنه ﷺ ما يدلّ على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفى هذا عتاب لطيف من الله سبحانه . وقيل : إن هذا عتاب له ﷺ فى إذنه للمنافقين بالخروج معه ، لا فى إذنه لهم بالقعود عن الخروج . والأوّل أولى ، وقد رخص له سبحانه فى سورة النور بقوله : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [النور : ٦٢] . ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات والله أعلم . وقيل : إن قوله : ﴿ عفا الله عنك ﴾ هى افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزّك ورحمك كيف فعلت كذا ، وكذا حكاه مكى والنحاس والمهدوى ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأوّل لا يحسن . ولا يخفاك أن التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربى ، وفى الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ ، والمسألة مدوّنة فى الأصول ، وفيها أيضا دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الأمور ، و « حتى » فى ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ للغاية ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الإذن لهم ، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم فى العذر الذى أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم فى ذلك ؟

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ فى القعود عن الجهاد ،

بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك . فقال : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا** ﴾ وهذا أن معنى الآية ألا يجاهدوا على حذف حرف النفى ؛ وقيل : المعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد . وقيل : إن معنى الاستئذان فى الشىء الكراهة له ، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلا عن أن يستأذنك فى التخلف . قال الزجاج: ﴿ **أن يجاهدوا** ﴾ فى موضع نصب بإضمار فى ، أى فى أن يجاهدوا ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ﴿ **إنما يستأذنك** ﴾ فى القعود عن الجهاد ، والتخلف عنه ﴿ **الذين لا يؤمنون بالله واليوم** الآخر ﴾ وهم المنافقون ، ذكر الإيمان بالله أوّلا ، ثم باليوم الآخر ثانيا فى الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد فى سبيل الله. قوله: ﴿ **وارتابت قلوبهم** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **الذين لا يؤمنون** ﴾ وجاء بالماضى للدلالة على تحقق الريب فى قلوبهم ، وهو الشك . قوله : ﴿ **فهم فى ريبهم يترددون** ﴾ أى فى شكهم الذى حلّ بقلوبهم يتحيرون ، والتردّد : التحير . والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنوك ليسوا بمؤمنين بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق .

قوله : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له**[1]**عدّة** ﴾ أى لو كانوا صادقين فيما يدّعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك ، ولكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه لما تركوا إعداد العدّة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون ، فمعنى هذا الكلام : أنهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدّوا للغزو . والعدّة : ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح . قوله : ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ أى ولكن كره الله خروجهم فتثبطوا عن الخروج .فيكون المعنى : ما خرجوا ولكن تثبطوا ؛ لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج ، والانبعاث : الخروج ، أى حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم ؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . وقيل : المعنى : لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له . قوله : ﴿ **وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ قيل : القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة . وقيل : قاله بعضهم لبعض . وقيل : قاله رسول الله ﷺ غضبا عليهم . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ، أى أوقع الله فى قلوبهم القعود خذلانا لهم . ومعنى ﴿ **مع القاعدين** ﴾ أى مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان ، وفيه من الذمّ لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا** ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ، والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف .قيل:هذا الاستثناء

---

(١) فى المطبوعة : « لهم ».

منقطع ، أى ما زادوكم قوّة ، ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى : لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا فيكون متصلا . وقيل : هو استثناء من أعمّ العام ، أى ما زادوكم شيئا إلا خبالا ، فيكون الاستثناء من قسم المتصل ؛ لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشىء . قوله : ﴿**ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة**﴾ الإيضاع : سرعة السير ، ومنه قول ورقة بن نوفل :

يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها وأضع

يقال : أوضع البعير : إذا أسرع السير . وقيل : الإيضاع : سير الخبب ، والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال ، أى الفرج التى تكون بين الصفوف ، والمعنى : لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين . قوله : ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ يقال : بغيته كذا : طلبته له ، وأبغيته كذا : أعنته على طلبه . والمعنى : يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد . وقيل : الفتنة هنا الشرك . وجملة : ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم ، والفساد لإخوانكم ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم ، لذلك اقتضت حكمته البالغة ألا يخرجوا معكم ، وكره انبعاثهم معكم، ولا ينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم فى التخلف ؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم ، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل ، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب ؛ ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة : ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا﴾ الآية [التوبة : ٨٣] ، وقال فى سورة الفتح : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم ﴾ إلى قوله : ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ [الفتح : ١٥] .

قوله : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل** ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها . كما وقع من عبد الله بن أبىّ وغيره ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ . وقوله : ﴿ **وقلبوا لك الأمور** ﴾ أى صرّفوها من أمر إلى أمر ، ودبروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قول العرب : حوّل قلب : إذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدير الرأى فيها ويتدبره . وقرئ : «وقلبوا» بالتخفيف ﴿ **حتى جاء الحق** ﴾ أى إلى غاية هى مجىء الحق ، وهو النصر لك والتأييد ﴿ **وظهر أمر الله**﴾ بإعزاز دينه وإعلاء شرعه وقهر أعدائه . وقيل : الحق : القرآن ﴿ **وهم كارهون** ﴾ أى والحال أنهم كارهون لمجىء الحق وظهور أمر الله ، ولكن كان ذلك على رغم منهم . ﴿ **ومنهم** ﴾ أى من المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ **ائذن لى** ﴾ فى التخلف عن الجهاد ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ أى

لا توقعنى فى الفتنة ، أى الإثم إذا لم تأذن لى فتخلفت بغير إذنك؛ وقيل : معناه : لا توقعنى فى الهلكة بالخروج ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ أى فى نفس الفتنة سقطوا ، وهى فتنة التخلف عن الجهاد ، والاعتذار الباطل . والمعنى : أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون فى الفتنة ، وهم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة . وفى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل ، وذلك أشدّ من مجرّد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصا ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

وقد أخـرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير عن عمرو بن ميمون قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشىء : إذنه للمنافقين ، وأخـذه من الأسـارى ، فأنـزل الله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عـون بن عبـد الله قال : ما سمعتم بمـعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبـل المعاتبة فقـال : ﴿ **عفـا الـلـه عنك لـم أذنت لهم** ﴾ (٢) . وأخـرج ابـن أبى شيبة وابـن المنـذر وابـن أبـى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك** ﴾ الآية قال : ناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : نسخها ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [النور : ٦٢] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه عنه فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله** ﴾ الآية . قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ (٣) [النور : ٦٢] . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك** ﴾ الآيتين قال : نسختها الآية التى فى سورة النور ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ إلى ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ [النور:٦٢]. فجعل الله النبى ﷺ بأعلى النظرين فى ذلك ، من غزا غزا فى فضيلة ، ومن قعد قعد فى غير حرج إن شاء الله (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ قال : خروجهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فثبطهم** ﴾ قال : حبسهم. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما**

---

(١) عبد الرزاق (٩٤٠٣) وابن جرير ١٠/ ١٠٠ . (٢) ابن أبى شيبة (١٦٠٦٩) .
(٣) ابن جرير ١٠ / ١٠٠ . (٤) البيهقى ٩/ ١٧٣ ، ١٧٤ .

زادوكم إلا خبالا ﴾ قال : هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ قال : لأسرعوا بينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ قال : لأرفضوا ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ يبطئونكم ، عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبى بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وأوس بن قيظى ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين ، وهم عيون للمنافقين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس قال : لما أراد النبى ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس :« يا جد بن قيس [1] ، ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ؟» فقال : يا رسول الله ، إنى امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن ، فأذن لى ولا تفتنى ، فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ﴾ الآية [2] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تفتنى ﴾ قال : لا تخرجنى ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ يعنى : فى الخروج . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ ولا تفتنى ﴾ قال : لا تؤثمنى ﴿ ألا فى الفتنة ﴾ قال : ألا فى الإثم ، وقصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها [3] .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾ .

---

(١) فى المطبوعة : « جر بن قيس» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) الطبرانى (٢١٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٣ : « وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » .

(٣) راجع : سيرة ابن هشام ٤/ ١٥٥ ـ ١٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣ ـ ١٧ .

قوله : ﴿ **إن تصبك حسنة** ﴾ أى حسنة كانت بأى سبب اتفق ، كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط ، وكذلك القول فى المصيبة ، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوليا ، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة : الغنيمة والظفر . ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة : الخيبة والانهزام ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم ، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، فإن المساءة بالحسنة ، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم فى العداوة قد بلغوا إلى الغاية ، ومعنى ﴿ **تولوا** ﴾ : رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم : ﴿ **قد أخذنا أمرنا من قبل** ﴾ أى احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم ، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ أى فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتابه المنزل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفى الحسدة . ﴿ **هو مولانا** ﴾ أى ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله تفويض الأمور إليه ، والمعنى : أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره . وقرأ طلحة بن مصرف : « يصيبنا » بتشديد الياء . وقرأ أعين قاضى الرى : «يصيبنا » بنون مشددة ، وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد ، ورد بمثل قوله تعالى : ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ [الحج : ١٥] . وقال الزجاج : معناه : لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة ، وعلى هذا القول يكون قوله : ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ تكريرا لغرض التأكيد ، والأول أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر ، والتأسيس خير من التأكيد ، ومعنى ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ : هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين : إما النصرة أو الشهادة ، وكلاهما مما يحسن لدينا ، والحسنى : تأنيث الأحسن ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ ﴿ **ونحن نتربص بكم** ﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿ **أن يصيبكم الله بعذاب من عنده** ﴾ أى قارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه . ﴿ **أو** ﴾ بعذاب لكم ﴿ **بأيدينا** ﴾ أى بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبى . والفاء فى ﴿ **فتربصوا** ﴾ فصيحة ، والأمر للتهديد كما فى قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] أى تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم . وقرأ البزى وابن فليح : « هل تربصون » بإظهار اللام وتشديد التاء . وقرأ الكوفيون بإدغام اللام فى التاء . وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء .

قوله : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم** ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء ؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم ، والتقدير : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم . وقيل : هو أمر فى معنى الخبر ، أى أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ، فهو كقوله : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : ٨٠] وفيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول ، وانتصاب طوعا أو كرها على الحال فهما مصدران فى موقع المشتقين ، أى أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما . وسمى الأمر منهما إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر ، فكانوا بأمرهم الذى لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم ، وجملة : ﴿ **إنكم كنتم قوما فاسقين** ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم ، والفسق : التمرد والعتو ، وقد سبق بيانه لغة وشرعا .

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال : ﴿ **وما منعهم** [1] **أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله** ﴾ أى كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور ، الأول : الكفر ، الثانى : أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل والتثاقل ؛ لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظهراً بالإسلام الذى يبطنون خلافه ، والثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون ، ولا ينفقونها طوعا لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله .

قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ الإعجاب بالشىء : أن يسر به سرورا راض به متعجب من حسنه ، قيل : مع نوع من الافتخار ، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ؛ والمعنى : لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا** ﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون ويأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم ، وكذا فى الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ذلك ، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصدق به . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون ، قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى : أن الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل ، وتصميمهم على الكفر وتماديهم فى الضلالة .

ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾ أى من جملتكم فى دين الإسلام والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه ﴿ **وما هم منكم** ﴾ فى ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أى يخافون أن

(١) فى المطبوعة : « معهم » .

ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبى ، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره ﴿ **أو مغارات** ﴾ جمع مغارة ، من غار يغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات : الغيران والسراديب ، وهى المواضع التى يستتر فيها ، ومنه غار الماء وغارت العين، والمعنى : لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم ﴿ **أو مدخلا** ﴾ من الدخول ، أى مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات . قال النحاس : الأصل فيه متدخل ، قلبت التاء دالا ، وقيل : أصله : مدتخل . وقرأ أبى : « متدخلا » ، وروى عنه أنه قرأ : «مندخلا» بالنون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن محيصن : « أو مدخلا » بفتح الميم وإسكان الدال. قال الزجاج : ويقرأ : « أو مدخلا » بضم الميم وإسكان الدال . وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم ﴿ **لولوا إليه** ﴾ أى لالتجؤوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه ، والحال أنهم ﴿**يجمحون** ﴾ أى يسرعون إسراعا لا يردهم شىء ، من جمع الفرس : إذا لم يرده اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح وإحضارها كمعمعة السعف الموقد

والمعنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء يقولون : إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبى وأصحابه ، فساءهم ذلك فأنزل الله : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ الآية . وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ يقول : إن يصبك فى سفرك هذه الغزوة ـ تبوك ـ حسنة تسؤهم قال : الجد وأصحابه ، يعنى : الجد بن قيس .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ قال : إلا ما قضى الله لنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ قال : فتح أو شهادة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **أو بأيدينا** ﴾ قال : القتل بالسيوف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالى ، قال : ففيه نزلت : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها** ﴾ الآية [1] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم**﴾ قال : هذه من تقاديم الكلام ، يقول : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٠٧ .

يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ قال : تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا ﴿ **وهم كافرون** ﴾ قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك** ﴾ يقول : لا يغررك ﴿**وتزهق** ﴾ قال : تخرج أنفسهم ، قال : فى الدنيا وهم كافرون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ الآية ، قال : الملجأ : الحرز فى الجبال ، والمغارات : الغيران ، والمدخل : السرب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى ﴿ **وهم يجمحون** ﴾ قال : يسرعون .

﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومنهم من يلزمك** ﴾: هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم ، يقال : لمزه يلمزه : إذا عابه . قال الجوهرى : اللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يَلْمِزه ويَلْمُزه، ورجل لماز ، ولمزة ، أى عياب . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمزه و ألْمزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذا همزته . ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك فى الصدقات، أى فى تفريقها وقسمتها ، وروى عن مجاهد أنه قال : معنى ﴿ **يلزمك** ﴾ : يرزؤك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأول كما قال النحاس . وقرئ : « يلمزك » بضم الميم ، و« يلمزك» بكسرها مع التشديد . وقرأ الجمهور بكسرها مخففة . ﴿ **فإن أعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ **رضوا** ﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه ، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شىء ﴿ **وإن لم يعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه ﴿ **إذا هم يسخطون** ﴾ أى وإن لم يعطوا فاجؤوا السخط ، وفائدة إذا الفجائية: أن الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه . وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء . ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ أى ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات ، وجواب « لو » محذوف أى لكان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل ﴿ **وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾ أى قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم ، أى كفانا الله ، سيعطينا من فضله ويعطينا رسوله بعد هذا

ما نرجوه ونؤمله ﴿ **إنا إلى الله راغبون** ﴾ فى أن يعطينا من فضله ما نرجوه .

قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ فى قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم ، و ﴿ **إنما** ﴾ من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس ، أى جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها ، بل هى لهم لا لغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة ؟ فذهب إلى الأول الشافعى وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثانى مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران . قال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم : احتج الأولون بما فى الآية من القصر وبحديث زياد بن الحارث الصدائى عند أبى داود والدارقطنى قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة ، فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » . وأجاب الآخرون بأن ما فى الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف ، لا لوجوب استيعاب الأصناف ، وبأنه فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم الإفريقى وهو ضعيف . ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ [البقرة : ٢٧١] . والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة . وصح عنه ﷺ أنه قال : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم » (١) . وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر . قال ابن عبد البر : يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفا منهم .

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾ : قدمهم ؛ لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم . وقد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت والقتيبى ويونس بن حبيب : إن الفقير أحسن حالا من المسكين ، قالوا : لأن الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذى لا شىء له ، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة . وقال آخرون بالعكس ، فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [الكهف : ٧٩] . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال ، ويؤيده تعوذ النبى ﷺ من الفقر مع قوله : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا » (٢) . وإلى هذا ذهب الأصمعى وغيره من أهل اللغة ، وحكاه

---

(١) جزء من حديث ابن عباس قال : إن النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال . . . وذكر الحديث ، وهو فى البخارى فى الزكاة (١٣٩٥) .

(٢) جزء من حديث أنس رضى الله عنه ، وهو فى الترمذى فى الزهد (٢٣٥٢) وقال : « غريب » .

الطحاوى عن الكوفيين ، وهو أحد قولى الشافعى وأكثر أصحابه . وقال قوم : إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولى الشافعى ، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف . وقال قوم : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين : السائل . قاله الأزهرى ، واختاره ابن شعبان ، وهو مروى عن ابن عباس . وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتد بها . والأولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول اله ﷺ عند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول اله ﷺ قال : «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » (١) .

قوله : ﴿ **والعاملين عليها** ﴾: أى السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة ؛ فإنهم يستحقون منها قسطا . وقد اختلف فى القدر الذى يأخذونه منها ، فقيل : الثمن ، روى ذلك عن مجاهد والشافعى . وقيل : على قدر أعمالهم من الأجرة ، روى ذلك عن أبى حنيفة وأصحابه . وقيل : يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روى ذلك عن مالك ، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا ؟ فمنعه قوم ، وأجازه آخرون . قالوا : ويعطى من غير الصدقة .

قوله : ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ : هم قوم كانوا فى صدر الإسلام ، فقيل : هم الكفار الذين كان النبى ﷺ يتألفهم ليسلموا ، وكانوا لا يدخلون فى الإسلام بالقهر والسيف ، بل بالعطاء . وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع ، أعطاهم النبى ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام وقد أعطى النبى ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا ؟ فقال عمر والحسن والشعبى : قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك . وقال جماعة من العلماء : سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهرى عنهم فقال : لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف .

---

(١) البخارى فى الزكاة (١٤٧٦ ، ١٤٧٩) ومسلم فى الزكاة (١٠٣٩ / ١٠١ ، ١٠٢) ومالك فى الموطأ فى صفة النبى ﷺ (٧) .

قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ أى : فى فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها . روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر ، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل وإسحق وأبو عبيد . وقال الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد : إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى ورواية عن مالك ، والأولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: ﴿ **والغارمين** ﴾ هم الذين ركبتهم الديون[1] ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف فى ذلك إلا من لزمه دين فى سفاهة ؛ فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب . وقد أعان النبى ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها . قوله : « ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء ، وهذا قول أكثر العلماء. وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار، وروى عن أحمد وإسحق أنهما جعلا الحج من سبيل الله. وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يعطى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعا به .

قوله : ﴿ **وابن السبيل** ﴾ هو المسافر ، والسبيل : الطريق ، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها ، والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وإن كان غنيا فى بلده. وإن وجد من يسلفه. وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله : ﴿ **فريضة من الله** ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ معناه : فرض الله الصدقات لهم . والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوال عباده ﴿ **حكيم** ﴾ فى أفعاله ؛ وقيل : إن ﴿**فريضة** ﴾ منتصبة بفعل مقدر ، أى فرض الله ذلك فريضة . قال فى الكشاف : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الآخرة ؟ قلت : للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره[2]، وقيل : النكتة فى العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤوا ، وفى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخارى والنسائى وابن جريج وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر ابن الخطاب : ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبى ﷺ : « دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »

---

(١) فى المطبوعة : « الذنوب » .
(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ .

الحديث [١] حتى قال : وفيهم نزلت : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ومنهم من يلمزك** ﴾ قال: يرزؤك ويسألك. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : يطعن عليك . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : لما قسم النبى ﷺ غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبى ﷺ وذكرت ذلك له ، فقال : « رحمة الله على موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » ، ونزل : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة فى القرآن : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن حذيفة فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية قال : إن شئت جعلتها فى صنف واحد من الأصناف الثمانية التى سمى الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى العالية والحسن وعطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن قتادة قال : الفقير الذى به زمانة ، والمسكين : المحتاج الذى ليس به زمانة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ قال : هم زمنى أهل الكتاب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والعاملين عليها** ﴾ قال : السعاة أصحاب الصدقة .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا : هذا دين صالح ، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه . وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : بعث على بن أبى طالب من اليمن إلى النبى ﷺ بذهيبة فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلى وعلقمة بن علاثة العامرى ، وعيينة بن بدر الفزارى ، وزيد الخيل الطائى ؛ فقالت قريش والأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبى ﷺ : « إنما أتألفهم »[٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الزهرى أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودى أو نصرانى ، قلت : وإن كان موسرا ؟ قال : وإن كان موسرا . وأخرج هؤلاء عن أبى جعفر قال : ليس اليوم مؤلفة قلوبهم . وأخرج هؤلاء أيضا عن الشعبى مثله .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ قال : هم المكاتبون . وأخرج ابن المنذر عن النخعى نحوه . وأخرج أيضا عن عمر بن عبد الله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدعى الإسلام ، والنصف الآخر يشترى به رقاب ممن صلى

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤٣٥١) ومسلم فى الزكاة (١٠٦٤/١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨) وأبو داود فى السنة (٤٧٦٤) وابن جرير ١٠/١٠٩ .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٢) وفى الأنبياء (٣٣٤٤) .

وصام وقدم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله. وأخرج ابن أبى شيبة وأبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته فى الحج وأن يعتق منها رقبة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الزهرى أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى جعفر فى قوله : ﴿ **والغارمين** ﴾ قال : هو الذى يسأل فى دم أو جائحة تصيبه ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ قال : هم المجاهدون ﴿ **وابن السبيل** ﴾ قال : المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل : هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها ، أو الرجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز فى سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغنى » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » (٢) . وأخرج أحمد عن رجل من بنى هلال قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر مثله(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار (٤) قال : أخبرنى رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب»(٥) .

﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٦٦)** ﴾ .

---

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٠ وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٧) وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤١) .

(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٧ وفى الرد على أبى حنيفة١٤/ ٢٧٥ (١٨٣٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٤) والترمذى فى الزكاة (٦٥٢) وقال : «حديث حسن » .

(٣) أحمد ٥/ ٣٧٥ .

(٤) فى المطبوعة : «عبد الله بن عدى بن الجار» وفى المخطوطة : عبد الله بن عدى بن الخيار» ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج التالية فى الهامش التالى .

(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٨ وأبوداود فى الزكاة(١٦٣٣) والنسائى فى الزكاة ٥/ ٩٩ ، ١٠٠ .

قوله : ﴿ **ومنهم** ﴾ هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ على وجه الطعن والذم ﴿ **هو أذن** ﴾ قال الجوهرى : يقال : رجل أذن : إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ومرادهم ، أقمأهم الله ، أنهم إذا آذوا النبى وبسطوا فيه ألسنهم ، وبلغه ذلك اعتذروا له وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه أنه أذن مبالغة ؛ لأنهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة : عين ، وإيذاؤهم له هو قولهم : ﴿ **هو أذن** ﴾ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما وتغاضيا ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ **قل أذن خير لكم** ﴾ بالإضافة على قراءة الجمهور . وقرأ الحسن بالتنوين ، وكذا قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن فى غير ذلك ، كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح ، والمعنى : أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرئ «أذن» بسكون الذال وضمها ، ثم فسر كونه أذن خير بقوله : ﴿ **يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ أى يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان ، فتكون اللام فى ﴿ **للمؤمنين** ﴾ للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف . كما قال المبرد . وقرأ الجمهور : ﴿**ورحمة** ﴾ بالرفع عطف على أذن . وقرأ حمزة بالخفض عطفا على خير . والمعنى على القراءة الأولى : هو أنه أذن خير ، وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية : أنه أذن خير وأذن رحمة . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد ، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين ، وهذا يقبح فى المخفوض ، والمعنى : أن النبى ﷺ أذن خير للمنافقين ﴿ **ورحمة** ﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكأنه قال : هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء ، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته ، ومعنى : ﴿ **للذين آمنوا منكم** ﴾ أى الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿ **والذين يؤذون رسول الله** ﴾ ﷺ بما تقدم من قولهم : هو أذن ، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله ﷺ ﴿ **لهم عذاب أليم** ﴾ أى شديد الألم . وقرأ ابن أبى عبلة : «ورحمة للمؤمنين » بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف ، أى ورحمة لكم يأذن لكم .

ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ والخطاب للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبى ﷺ فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم ، وقال : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ أى هما أحق بذلك من

إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ، وإفراد الضمير فى ﴿ **يرضوه** ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهى بإفراده بالذكر أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله ، فإرضاء الله إرضاء لرسوله ؛ أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، كما قال سيبويه ، ورجحه النحاس ، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة ؛ فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد ، أو الضمير راجع إلى المذكور ، وهو يصدق عليهما . وقال الفراء : المعنى : ورسوله أحق أن يرضوه . ﴿ **والله** ﴾ افتتاح كلام كما تقول : ما شاء الله وشئت ، وهذه الجملة ، أعنى : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، وجواب ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ محذوف ، أى إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم** ﴾ . قرأ الحسن وابن هرمز : « ألم تعلموا » بالفوقية . وقرأ الباقون بالتحتية ، والمحاددة : وقوع هذا فى حد ، وذلك فى حد كالمشاقة ، يقال : حاد فلان فلانا : أى صار فى حد غير حده ﴿ **فإن له نار جهنم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى فحق أن له نار جهنم . وقال الخليل وسيبويه : إن « أن » الثانية مبدلة من الأولى ، وزعم المبرد أن هذا القول مردود ، وأن الصحيح ما قال الجرمى أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام . وقال الأخفش : المعنى: فوجوب النار له ، وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر . وقرئ بكسر الهمزة . قال سيبويه ، وهى قراءة جيدة ، وأنشد :

وإنى إذا ملت ركابى مناخها ... فإنى على حظى من الأمر جامح

وانتصاب ﴿**خالدا**﴾ على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من العذاب ، وهو مبتدأ وخبره ﴿**الخزى العظيم** ﴾ أى الخزى البالغ إلى الغاية التى لا يبلغ إليها غيره ، وهو الذل والهوان .

قوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة** ﴾ قيل : هو خبر وليس بأمر . وقال الزجاج : معناه : ليحذر . فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم ، وعلى الثانى : الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، و﴿**أن تنزل** ﴾ فى موضع نصب ، أى من أن تنزل . ويجوز على قول سيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقدير « من » وإعمالها ، ويجوز أن يكون النصب على المفعولية . وقد أجاز سيبويه : حذرت زيدا ، وأنشد :

حذر أمورا لا تضير وآمن ... ما ليس ينجيه من الأقدار

ومنع من النصب على المفعولية المبرد . ومعنى : ﴿ **عليهم** ﴾ أى على المؤمنين فى شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين ، أى فى شأنهم ﴿**تنبئهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **بما فى قلوبهم**﴾ مما يسرونه فضلا عما يظهرونه ، وهم وإن كانوا

عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ **قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ هو أمر تهديد ، أى افعلوا الاستهزاء إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون ، إما بإنزال سورة . أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك .

قوله : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب ، ولم نكن فى شىء من أمرك ولا أمر المؤمنين . ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ والاستفهام : للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفى ، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال : ﴿ **لا تعتذروا**﴾ نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة ، فإن ذلك غير مقبول منهم . وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة : أن معنى الاعتذار : محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم : اعتذر المنزل : إذا درس ، واعتذرت المياه : إذا انقطعت ﴿ **قد**[1] **كفرتم** ﴾ أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿ **بعد إيمانكم** ﴾ أى بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر ﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ وهم من أخلص الإيمان وترك النفاق وتاب عنه . قال الزجاج : الطائفة فى اللغة : الجماعة . قال ابن الأنبارى : ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿ **نعذب طائفة** ﴾ بسبب ﴿ **أنهم كانوا مجرمين** ﴾ مصرين على النفاق لم يتوبوا منه . قرئ : ﴿ **نعذب** ﴾ بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه بشىء صدقه ، فأنزل الله فيه : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن** ﴾[2] الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومخشى بن حمير ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ فنهى بعضهم بعضا وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، فقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل:﴿**ومنهم الذين يؤذون النبى** ﴾[3] الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو أذن**﴾ يعنى : أنه يسمع من كل أحد قال الله تعالى : ﴿ **أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ يعنى : يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وأخرج الطبرانى وابن عساكر وابن مردويه عن عمير بن

(١) فى المطبوعة : «فقد» .
(٢) ابن إسحاق ٤/ ١٩٤ ، والواحدى ص ١٤٣ .
(٣) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ .

سعد قال : فى أنزلت هذه الآية ﴿ **ويقولون هو أذن** ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتى النبى ﷺ فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته ، وقال : ﴿ **هو أذن** ﴾ فأنزلت فيه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار ، فسعى بها الرجل إلى نبى الله ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ يقول : يعادى الله ورسوله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يحذر المنافقون** ﴾ الآية قال: يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح بن عبيد أن رجلا قال لأبى الدرداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقما إذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه بشىء فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ، فانطلق عمر إلى الرجل الذى قال ذلك، فأخذ بثوبه وخنقه وقاده إلى النبى ﷺ ، فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل فى المجلس : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى ﷺ يقول : « **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** » (١) . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى فى الضعفاء وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب فى رواية مالك، عن ابن عمر ، فقال : رأيت عبد الله بن أبى وهو يشتد قدام النبى ﷺ والأحجار تنكبه وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب، والنبى ﷺ يقول: « **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**» .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : بينما رسول الله ﷺ فى غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبى الله ﷺ : « احبسوا على هؤلاء الركب» ، فأتاهم فقال :

(١) ابن جرير ١٠/١١٩ .

« قلتم كذا » . قالوا يا نبى الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد روى نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن نعف عن طائفة﴾ قال : الطائفة : الرجل والنفر .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين ، وأن ذكورهم فى ذلك كإناثهم ، وأنهم متناهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، وفيه إشارة إلى نفى أن يكونوا من المؤمنين ، ورد لقولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المؤمنين [1] فقال : ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ وهو كل قبيح عقلا أو شرعا ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ وهو كل حسن عقلا أو شرعا . قال الزجاج : هذا متصل بقوله : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ [التوبة: ٥٦] أى ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أى يشحون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصدقة والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح ، كما أن البسط كناية عن الكرم . والنسيان الترك ، أى تركوا ما أمرهم به ، فتركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقى لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة فى علم البيان ، ثم حكم عليهم بالفسق ، أى الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه ، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون فى الفسق . ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿نار جهنم ﴾ و﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة أى مقدرين الخلود . وفى هذه الآية دليل على أن «وعد» يقال فى الشر كما يقال فى الخير . ﴿ هى حسبهم ﴾ أى كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها ، « و » مع ذلك فقد ﴿لعنهم الله ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم .

---

(١) فى المطبوعة « المنافقين » ، والصحيح ما أثبتناه .

قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف ، أى أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب ، أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم . وقال الزجاج : التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم ؛ وقيل : المعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فحذف المضاف . ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبى ﷺ ﴿ **قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا**[1] ﴾ أى تمتعوا ﴿ **بخلاقهم** ﴾ أى نصيبهم الذى قدره الله لهم من ملاذ الدنيا ﴿**فاستمتعم** ﴾ [2] أنتم ﴿ **بخلاقكم** ﴾ أى نصيبكم الذى قدره الله لكم ﴿ **كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ أى انتفعتم به كما انتفعوا به ، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم الله . وقد قيل : ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الأولين مرة ، ثم فى حق المنافقين ثانيا ، ثم تكريره فى حق الأولين ثالثا ؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ ، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة .

قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى كالفوج الذى خاضوا ، أو كالخوض الذى خاضوا . وقيل : أصله كالذين فحذفت النون ، والأولى أن يقال : إن «الذى » اسم موصول مثل من وما ، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال : خضت الماء أخوضه خوضا وخياضا ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا ، وجمعها المخاض والمخاوض . ويقال منه : خاض القوم فى الحديث وتخاوضوا فيه ، أى تفاوضوا فيه ، والمعنى: خضتم فى أسباب الدنيا واللهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب ، أى دخلتم فى ذلك ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ أى بطلت ، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو فى صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصى ، ومعنى : ﴿ **فى الدنيا و الآخرة** ﴾ أنها باطلة على كل حال : أما بطلانها فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم، بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا ، ومن العز ذلا ، ومن القوة ضعفا ، وأما فى الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار ولا ينتفعون بشىء مما عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعة وقربة ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ أى المتمكنون فى الخسران الكاملون فيه فى الدنيا والآخرة .

﴿ **ألم يأتهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **نبأ الذين من قبلهم** ﴾ أى خبرهم الذى له شأن ، وهو ما

---

(١) فى المطبوعة : « استعمتوا » .

(٢) فى المطبوعة : « ما استمعتم » .

فعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال فى المشبه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم وهى الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأولهم : قوم نوح وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم : قوم عاد وقد أهلكوا بالريح العقيم ، وثالثهم : قوم ثمود وقد أخذوا بالصيحة ، ورابعهم : قوم إبراهيم وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم : أصحاب مدين وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة ، وسادسهم : أصحاب المؤتفكات وهى قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة ، وسميت مؤتفكات ؛ لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها ، والائتفاك : الانقلاب ﴿ **أتتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى رسل هذه الطوائف الست . وقيل : رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا ، والفاء فى ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ، لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ بسبب مافعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾ قال : هو التكذيب ، قال : وهو أنكر المنكر ﴿**وينهون عن المعروف** ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله ، وهو أعظم المعروف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ قال : لا يبسطونها بنفقة فى حق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ قال : صنيع الكفار كالكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه [1] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿**بخلاقهم**﴾ قال : بدينهم . وأخرجا أيضا عن أبى هريرة قال : الخلاق : الدين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم** ﴾ قال : بنصيبهم فى الدنيا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ قال : لعبتم كالذى لعبوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ قال : قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم ، فجعل عاليها سافلها .

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٢٢ .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى قلوبهم متحدة فى التوادد والتحابب والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله ، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال : ﴿**يأمرون بالمعروف** ﴾ أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر . ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ أى عما هو منكر فى الدين غير معروف ، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدم معنى هذا ﴿ **ويطيعون الله**﴾ فى صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه ، والإشارة بـ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف ، والسين فى ﴿**سيرحمهم الله** ﴾ للمبالغة فى إنجاز الوعد ﴿**إن الله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى أقواله وأفعاله .

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالا باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة فقال : ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير ؛ ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات : أنها تجرى تحت أشجارها وغرفها ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . ﴿ **ومساكن طيبة** ﴾ أى منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت، و﴿ **جنات عدن** ﴾ يقال : : عدن بالمكان : إذا أقام به ، ومنه : المعدن . قيل : هى أعلى الجنة . وقيل: أوسطها ، وقيل : قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبى أو صديق أو شهيد . وصف الجنة بأوصاف ، الأول : جرى الأنهار من تحتها ، والثانى : أنهم فيها خالدون ، والثالث : طيب مساكنها ، والرابع : أنها دار عدن ، أى إقامة غير منقطعة ، هذا على ما هو معنى عدن لغة . وقيل: هو علم ، والتنكير فى ﴿ **رضوان**﴾ للتحقير ، أى ورضوان حقير يستر « من» رضوان ﴿ **الله أكبر** ﴾ من ذلك كله الذى أعطاهم الله إياه . وفيه دليل على أنه لا شىء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شىء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية . اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولايكدره نكد ، يا من بيده الخير كله دقه وجله . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزا .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف** ﴾ قال : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والنفقات فى سبيل الله وما كان من طاعة الله ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ عن

الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : إخاؤهم فى الله يتحابون بجلال الله والولاية لله ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى : ﴿**ومساكن طيبة فى جنات عدن** ﴾ قالا : على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قصر من لؤلؤة فى الجنة ، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، فى كل مائدة سبعون لونا من كل طعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة فى كل غداة ما يأتى على ذلك كله ». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جنات عدن**﴾ قال : معدن الرجل الذى يكون فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : معدنهم فيها أبدا. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ يعنى : إذا أخبروا أن الله عنهم راض ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (٢) .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)** ﴾ .

الأمر للنبى ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا . وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله . وقال الحسن : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة . قيل فى توجيهه : إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود . قال ابن العربى : إن هذه دعوى لا برهان عليها،

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ فى حديث طويل وهذا جزء منه : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » رواه أبو داود والترمذى وقال : « حسن » .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٥١٨) ومسلم فى الجنة (٩/٢٨٢٩) والترمذى فى الجنة (٢٥٥٥) وقال : «حسن صحيح » .

وليس العاصى بمنافق ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق دائما لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين . قوله : ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة ، وهو شدة القلب وخشونة الجانب ، قيل : وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ .

وقد اختلف أئمة التفسير فى سبب نزول هذه الآية ، فقيل : نزلت فى الجلاس بن سويد ابن الصامت ووديعة بن ثابت[1] ، وذلك أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين وذمهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس : أجل والله إن محمدا لصادق مصدق ، وإنك لشر من الحمار ؛ وأخبر عامر بذلك النبى ﷺ ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامرا لكاذب ، وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت . وقيل : إن الذى سمع ذلك عاصم بن عدى . وقيل : حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته ، أى امرأة الجلاس ، واسمه عمير بن سعد ، فهم الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبى رأس المنافقين لما قال : ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك [2]، و﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون:٨] . فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فجاء عبد الله بن أبى فحلف أنه لم يقله . وقيل: إنه قول جميع المنافقين وأن الآية نزلت فيهم ، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف . ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذبا، فقال : ﴿**ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ وهى ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ أى كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام وإن كانوا كفارا فى الباطن . والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

قوله : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ قيل : هو همهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة فى غزوة تبوك . وقيل : هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبى . وقيل : هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله ﷺ . قوله: ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أى وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء . وهو إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعم العام ، وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ومن باب قول الشاعر :

ما نقموا من بنى أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم . وقد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش . فلما

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ وهو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصارى ، كان متهما بالنفاق نزل فيه: ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم ﴾ فتاب الجلاس وحسنت توبته . الإصابة ١/ ٢٤١ .

(٢) فى المطبوعة : «يأكك» ، والصحيح ما أثبتناه .

قدم النبى ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم . قوله : ﴿ **فإن يتوبوا يك خيرا لهم** ﴾ أى فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين والدنيا . وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن إسلامه ، وفى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق ، فمنع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو فى كل حين يظهر التوبة والإسلام . ﴿ **وإن يتولوا** ﴾ أى يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿ **يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا** ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال «و» فى ﴿ **الآخرة** ﴾ بعذاب النار ﴿ **وما لهم فى الأرض من ولى** ﴾ يواليهم ﴿**ولانصير**﴾ينصرهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ، فسمعها عمير ابن سعد. فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى أثرا وأعزهم على أن يدخل عليه شىء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها لتهلكنى، ولإحداهما أشد على من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس ، فحلف بالله ما قال ولكن كذب على عمير . فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية[1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال : سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول والنبى ﷺ يخطب : إن كان هذا صادقا لنحن شر من الحمير ؛ قال زيد : هو والله صادق وأنت شر من الحمار ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فجحد القائل ، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية[2]. وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمنى أنت وأصحابك »، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا**﴾ الآية [3] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار،فظهر الغفارى على الجهنى، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، والله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : ٨] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله

(١) ابن إسحاق ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ والصواب والله أعلم: أنه من كلام ابن إسحاق، وليس من كلام كعب . والمشهور فى القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق، كما قال ابن كثير٣/ ٤٢٤ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٢ من رواية عامر بن قيس . (٣) ابن جرير ١٠/ ١٢٨ .

﴿يحلفون بالله﴾ الآية[١] . وفى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال : هم رجل يقال له الأسود بقتل النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى بتاج. وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديته اثنى عشر ألفا ، وذلك قوله : ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ قال : بأخذهم الدية [٢] .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ .

اللام الأولى وهى : ﴿ لئن آتانا ﴾ الله ﴿ من فضله ﴾ لام القسم ، واللام الثانية وهى : ﴿ لنصدقن ﴾ لام الجواب للقسم والشرط . ومعنى ﴿ لنصدقن ﴾ : لنخرج الصدقة ، وهى أعم من المفروضة وغيرها ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ أى من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ أى لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به ، أى بما آتاهم من فضله فلم يتصدقوا بشىء منه كما حلفوا به ﴿وتولوا ﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ، والحال أنهم ﴿معرضون﴾ فى جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده .

قوله : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ الفاعل : هو الله سبحانه ، أى فأعقبهم الله بسبب البخل الذى وقع منهم والإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم ، متمكنا منها ، مستمرا فيها إلى يوم يلقون الله عز وجل . وقيل : إن الضمير يرجع إلى البخل ، أى فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم ، أى جزاء بخلهم . ومعنى ﴿ فأعقبهم ﴾ : أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل ، والباء فى ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ للسببية ، أى بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح ، وكذلك الباء فى ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أى وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٢٨ . (٢) ابن ماجة فى الديات (٢٦٣٢) وابن جرير ١٠/ ١٢٩ والبيهقى ٨/ ٧٨ .

ثم أنكر عليهم فقال : ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى المنافقون . وقرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين . ﴿ **أن الله يعلم سرهم ونجواهم** ﴾ أى جميع ما يسرونه من النفاق وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبى ﷺ وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿ **وأن الله علام الغيوب** ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء المغيبة كائنا ماكان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين .

قوله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الموصول محله النصب ، أو الرفع على الذم ، أو الجر بدلا من الضمير فى سرهم ونجواهم ، ومعنى ﴿ **يلمزون** ﴾ :يعيبون . وقد تقدم تحقيقه ، والمطوعين أى المتطوعين ، والتطوع : التبرع ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوعوا بشىء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون : ما أغنى الله عن هذا ، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء ، ولم يكن لله خالصا ، و﴿ **فى الصدقات** ﴾ متعلق بيلمزون ، أى يعيبونهم فى شأنها . قوله : ﴿ **والذين لا يجدون إلا جهدهم** ﴾ معطوف على المطوعين ، أى يلمزون المتطوعين ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم . وقيل : معطوف على المؤمنين ، أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين ، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم ، وقرئ : «جهدهم» بفتح الجيم ، والجهد بالضم : الطاقة ، وبالفتح : المشقة . وقيل : هما لغتان ومعناهما واحد وقد تقدم بيان ذلك . والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم . قوله : ﴿ **فيسخرون منهم**﴾ معطوف على ﴿ **يلمزون** ﴾ أى يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه . قوله : ﴿ **سخر الله منهم** ﴾ أى جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم ، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره . وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى ثابت مستمر شديد الألم . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والباوردى وأبو نعيم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : « ويلك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال : يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : «ويحك يا ثعلبة ، أما تحب أن تكون مثلى ، فلو شئت أن يسير ربى هذه الجبال معى ذهبا لسارت » . فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، قال : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه » ، قال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزقه مالا » . قال : فاتخذ غنما فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة . فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه . فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه . فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله ﷺ : « ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب » ؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ

الصدقات ، وأنزل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [التوبة : ١٠٣] فبعث رسول الله ﷺ رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بنى سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أريانى كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مرا إلى ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : إنما عليك دون هذا ، فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالى ، فقبلا ، فلما فرغا مرا بثعلبة ، فقال : أريانى كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما : «ويح ثعلبة بن حاطب » ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا ، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل منك » ، فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى » ، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى، ثم أتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار ، فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ؛ ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى، قال : ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبى ﷺ ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ؛ ثم ولى عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك فى خلافة عثمان ، وفيه نزلت : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ قال : وذلك فى الصدقة ، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن أبى عبدالرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى [١].

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله**﴾ الآية ، وذلك أن رجلا كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، وجعلت منه للقرابة ؛ فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن [٢] . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا ، فمات ابن عم له فورث منه مالا فبخل به ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه

---

(١) الطبرانى (٧٨٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٤ ، ٣٥: « وفيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك » وابن جرير ١٠/ ١٣٠ ، ١٣١ ، والواحدى فى أسباب النزول ١٤٥ ، ١٤٦ ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ ــ ٢٩٢ .
وهذا الحديث مشهور بين أهل التفسير ، وإنما يروى موصولا بأسانيد ضعاف ، فإن كان امتناعه من قبول توبته وقبول صدقته محفوظا ، فكأنه عرف نفاقه قديما ثم زيادة نفاقه وموته عليه ثم أنزل الله تعالى عليه من الآية حديثا فلم ير كونه من أهل الصدقة فلم يأخذها منه. وذكرها ابن كثير فى التاريخ وفى التفسير.

(٢) ابن جرير ١٠/ ١٣٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ .

بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه ، قال ذلك ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود [١] قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا : مراء ؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الآية [٢] ، وفى الباب روايات كثيرة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ أى يطعنون على المطوعين .

﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)** ﴾ .

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء ، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم﴾ [التوبة : ٥٣] ثم قال : ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وإن أكثر النبى ﷺ من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا : أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما فى سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا : المبالغة فى عدم القبول . فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل فى كلامها عند إرادة التكثير ، والمعنى : أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفارا بالغا فى الكثرة غاية المبالغ . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ، ويدل لذلك ما سيأتى عن النبى ﷺ أنه قال : « لأزيدن على السبعين » . وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال : إن السبعة عدد شريف ؛ لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع ، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة ؛ لأن الحسنة بعشرة أمثالها . وقيل : خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة بإذاء تكبيراتك على حمزة . وانتصاب ﴿ **سبعين** ﴾ على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة . ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أى ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين

(١) فى المخطوطة «ابن مسعود» ، والصحيح ما أثبتناه كما فى مراجع التخريج .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤١٥) وفى التفسير (٤٦٦٨) ومسلم فى الزكاة (١٠١٨/٧٢) والنسائى فى التفسير (٢٤٣) .

لحدودها ، والمراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب ، لا الهداية التى بمعنى الدلالة وإراءة الطريق .

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله** ﴾ المخلفون : المتروكون ، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان أو كسلهم أو المؤمنون ، ومعنى ﴿ **بمقعدهم** ﴾ أى بقعودهم يقال : قعد قعودا ومقعدا ، أى جلس ، وأقعده غيره ، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح ، أى فرح المخلفون بقعودهم ، ﴿ **وخلاف رسول الله** ﴾ منتصب على أنه ظرف لمقعدهم . قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف ، أى بعد رسول الله ﷺ ، وذلك أن جهة الأمام التى يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف . وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار وأقاموا فانتصابه على أنه مفعول له ، أى قعدوا لأجل المخافة ، أو على الحال مثل : وأرسلها العراك ، أى مخالفين له ، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبى حيوة : « خلف رسول الله » . قوله : ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس ، وعدم وجود باعث الإيمان ، وداعى الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ما هم فيه من النفاق ، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لوجود الداعى معهم ، وانتفاء الصارف عنهم ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر** ﴾ أى قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم ، وكسرا لنشاطهم ، وتواصيا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ والمعنى : أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ، ونار جهنم التى ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشد حرا مما فررتم منه ، فإنكم إنما فررتم من حر يسير فى زمن قصير ، ووقعتم فى حر كثير فى زمن كبير ، بل غير متناه أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

فكنت كالساعى إلى مثعب موائلا من سبل الراعد

وجواب « لو » فى ﴿ **لو كانوا يفقهون** ﴾ مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا .

قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا** ﴾ هذان الأمران معناهما الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا ، وإنما جىء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره . وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية ، أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا . أو زمانا قليلاً وزمانًا كثيرا ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ أى جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى ، وانتصاب ﴿ **جزاء** ﴾ على المصدرية ، أى يجزون جزاء ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم ، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وإنما قال: ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة ، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ، ثم عفا عنهم رسول الله

ﷺ . وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا ، وسيأتى بيان ذلك . وقيل : إنما قال : ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن منهم من تاب على النفاق ، وندم على التخلف ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا** ﴾ أى قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ [التوبة : ٤٧] . وقرئ بفتح الياء من « معى » فى الموضعين . وقرئ بسكونها فيهما ، وجملة : ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ للتعليل ، أى لن تخرجوا معى ، **ولن تقاتلوا** ، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة ، وهى غزوة تبوك. والفاء فى ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، والخالفين جمع خالف ، كأنهم خلفوا الخارجين ، والمراد بهم: من تخلف عن الخروج . وقيل : المعنى : فاقعدوا مع الفاسدين . من قولهم : فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم ، من قولك : خلف اللبن ، أى فسد بطول المكث فى السقاء . وذكر معناه الأصمعى . وقرئ :« فاقعدوا مع الخلفين » وقال الفراء : معناه : المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبى قال : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون: ٨]. فأنزل الله : ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** ﴾ فقال النبى ﷺ : «لأزيدن على السبعين »، فأنزل الله : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾[1] [المنافقون : ٦] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه [2] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، أعدد أيامه ، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر أخر عنى ، إنى قد خيرت ، قد قيل لى : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » . ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره** ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل [3] .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فرح المخلفون** ﴾ الآية قال : عن

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٣٨ . (٢) ابن أبى شيبة ١٤/ ٤٢٨ (١٨٦٨٤) وابن جرير ١٠/ ١٣٨ .

(٣) أحمد ١/ ١٦ والبخارى فى التفسير (٤٦٧١) وفى الجنائز (١٣٦٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٧) وقال : «هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٤٥) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٤٣ .

غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك فى الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله ، الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحر ، فقال الله : ﴿ **قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ فأمره بالخروج (١) . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا** ﴾ قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا . يقول الله : فليضحكوا قليلا فى الدنيا ، وليبكوا كثيرا فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين وفيهم قيل ما قيل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو .

﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾** ﴾ .

قوله : ﴿ **مات** ﴾ صفة لأحد ، و ﴿ **أبدا** ﴾ ظرف لتأبيد النفى . قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أن رسول الله ﷺ كان إذا دفن الميت وقف على قبره ، ودعا له ، فمنع ها هنا منه ؛ وقيل : معناه : لا تقم بمهمات إصلاح قبره . وجملة : ﴿ **إنهم كفروا** ﴾ : تعليل للنهى ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؛ لأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبحة فى كل دين ، ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم ، وهو تكرير لما سبق فى هذه السورة وتقرير لمضمونه . وقيل : إن الآية المتقدمة فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقيل : هذه فى اليهود . والأولى فى المنافقين ، وقيل : غير ذلك . وقد تقدم فى الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه فى تفسير هذه الآية .

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين ، فقال : ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ أى من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها ، وقيل : هى هذه السورة ، أى سورة براءة ، و«أن» فى ﴿ **أن آمنوا بالله** ﴾ مفسرة لما فى الإنزال من معنى القول ؛ أو مصدرية حذف منها الجار ، أى بأن آمنوا ، وإنما قدّم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان : ﴿ **استأذنك أولو الطول منهم** ﴾ أى ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا ، كذا قال ابن عباس والحسن ، وقال الأصم : الرؤساء والكبراء المنظور إليهم ، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم

(١) ابن جرير ١٠/ ١٣٩ .

ألزم ، إذ لا عذر لهم فى القعود ﴿ **وقالوا ذرنا**﴾ أى اتركنا ﴿ **نكن مع القاعدين** ﴾ أى المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمنى ، والخوالف : النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت . جمع خالفة ، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف ، وهو من لا خير فيه ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ هو كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : ٧] وقد مر تفسيره ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ شيئا مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه ، وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ؟ فقال : « إن ربى خيرنى وقال : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وسأزيد على السبعين » فقال : إنه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا** ﴾ الآية ، فترك الصلاة عليهم [1] . وأخرج ابن ماجة والبزار وابن جرير وابن مردويه عن جابر قال : مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ وأن يكفنه فى قميصه ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أولو الطول** ﴾ قال : أهل الغنى . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ قال : مع النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الخوالف النساء .

﴿ **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)** ﴾ .

المقصود من الاستدراك بقوله : ﴿ **لكن الرسول** ﴾ إلى آخره الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر ، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما فى قوله : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام : ٨٩] . وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس ، ثم ذكر منافع الجهاد فقال : ﴿**وأولئك لهم الخيرات** ﴾ وهى جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين ، وقيل : المراد به : النساء الحسان ، كقوله تعالى : ﴿فيهن خيرات حسان ﴾ [الرحمن : ٧٠] ومفرده خيرة بالتشديد ، ثم خففت مثل هينة وهينة : وقد تقدم معنى

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٧٢) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٤ / ٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٨) وقال : « هذا حديث صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٤٤) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٢٣) .

الفلاح والمراد هنا : الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم ، والجنات: البساتين . وقد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيمًا يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز .

وقد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال : الخيرات : هن النساء الحسان (١) .

﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)** ﴾ .

قرأ الأعرج والضحاك : « المعذرون » بالتخفيف، من أعذر ، ورواها أبوكريب عن أبى بكر عن عاصم ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال فى الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ : « وجاء المعذرون » مخففة من أعذر ، ويقول: والله هكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلبى ، وهى من أعذر : إذا بالغ فى العذر ، ومنه :« من أنذر فقد أعذر » أى بالغ فى العذر . وقرأ الجمهور : ﴿ **المعذرون** ﴾ بالتشديد ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال ، وهم الذين لهم عذر ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا : هم المحقون فى اعتذارهم . وقد روى هذا عن الفراء والزجاج وابن الأنبارى ، وقيل : هو من عذر، وهو الذى يعتذر ولا عذر له ، يقال : عذر فى الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر ، ذكره الجوهرى وصاحب الكشاف : فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها . وروى عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع ، والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو ، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ، ولم يؤمنوا ، ولا صدقوا ، ثم توعدهم الله سبحانه. فقال: ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم**﴾ أى من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا بالله ورسوله ﴿**عذاب أليم** ﴾ أى كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ أى أهل العذر منهم ، وروى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب (الأضداد) عنه أيضا أنه كان يقول : « لعن الله **المعذرين** » ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر

(١) القرطبى ٥/ ٣٠٦٣ .

بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ قال : ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاؤوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ؛ وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا .

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو . وبدأ بالعذر فى أصل الخلقة . فقال : ﴿**ليس على الضعفاء** ﴾ وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض فقال : ﴿ **ولا على المرضى** ﴾ والمراد بالمرضى : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا . وقيل : إنه يدخل فى المرضى الأعمى ، والأعرج ونحوهما . ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال : ﴿ **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون** ﴾ أى ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج ، وأبان أن الجهاد مع هذه الاعذارساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله: ﴿ **إذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ وأصل النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النصوح . قال نفطويه : نصح الشىء : إذا خلص . ونصح له القول ، أى أخلصه له . والنصح لله: الإيمان به والعمل بشريعته ، وترك ما يخالفها كائنًا ما كان، ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده. ومحبة المجاهدين فى سبيله ، وبذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد ، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ؛ ونصيحة الرسول ﷺ : التصديق بنبوته وبما جاء به ، وطاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه . وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، ومحبته وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة » ثلاثا ، قالوا : لمن ؟ قال : «للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1] وجملة : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ مقررة لمضمون ما سبق ، أى ليس على المعذورين الناصحين من سبيل، أى طريق عقاب ومؤاخذة . و« من » مزيدة للتأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿**المحسنين**﴾ موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا ، أو

---

(١) أحمد ١/ ٣٥١ ، ٢/ ٢٩٧ والبخارى فى الإيمان (٥٧) ومسلم فى الإيمان (٥٥/ ٩٥) وأبو داود فى الأدب (٤٩٤٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٢٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والنسائى ٧/ ١٥٦، ١٥٧ .

يكون المراد : ما على جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم فتكون الجملة تعليلية ، وجملة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ تذييلية . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقوله: ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [النور : ٦١] .

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرهم الله عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم فيه »، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال: «حبسهم العذر» (١) . وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر (٢) .

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ والعطف على جملة ﴿ **ما على المحسنين** ﴾ أى ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل ، ويجوز أن تكون عطفا على الضعفاء ، أى ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج . والمعنى : أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك . قيل : وجملة ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ فى محل نصب على الحال من الكاف فى ﴿ **أتوك** ﴾ بإضمار قد ، أى إذا ما أتوك قائلا . لا أجد . وقيل : هى بدل من أتوك . وقيل : جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأول أولى . وقوله : ﴿**تولوا** ﴾ جواب « إذا » وجملة : ﴿ **وأعينهم تفيض من الدمع** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى تولوا عنك لما قلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه حال كونهم باكين ، و﴿**حزنا**﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، أو الحالية ، و ﴿ **أن لا يجدوا** ﴾ مفعول له ، وناصبه ﴿ **حزنا** ﴾ وقال الفراء : إن « لا » بمعنى ليس ، أى حزنا أن ليس يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا على ألا يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون ، لا عند أنفسهم ولا عندك .

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال : ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أى طريق العقوبة والمؤاخذة ﴿**على الذين يستأذنونك** ﴾(٣) فى التخلف عن الغزو ، والحال أنهم ﴿**أغنياء**﴾ أى يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة : ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء ، وقد تقدم تفسير الخوالف قريبا . وجملة : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ معطوفة على ﴿ **رضوا** ﴾ أى السبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما :

---

(١) أحمد ٣/ ١٠٣، ١٦٠، ١٨٢، ٢١٤ والبخارى فى المغازى (٤٤٢٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٨) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦٤) .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠٠ ، ٣٤١ .

(٣) فى المطبوعة: «يستأذونك» والصواب ما أثبتناه.

الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهى أن يكونوا مع الخوالف ، والثانى : الطبع من الله على قلوبهم، ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة ، فكنت أكتب ما أنزل عليه ، فإنى لواضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله ، وأنا أعمى ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله : ﴿ **عفا الله عنك** ﴾ إلى قوله : ﴿**ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم** ﴾ فى المنافقين . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل**﴾ قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين . ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾ [النساء: ٩٥]. فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولى الضرر والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ قال : والله لأهل الإساءة ﴿**غفور رحيم**﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك** ﴾ الآية ، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزنى ، فقالوا : يا رسول الله ، احملنا ، فقال:«والله ما أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا ولهم بكاء ، وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عذرهم : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك** ﴾ الآية . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : إنى لا أجد الرهط الذين ذكر الله ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : هم سبعة نفر : من بنى عمر بن عوف سالم بن عمير،من بنى واقف حرمىّ بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ، ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى . وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة . واختلفوا فى البعض ولا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم ؛ أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم

---

(١) ابن جرير : ١٠/ ١٤٥ .

البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ؟ وفيه : فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة قال : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن الحسن قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ قال : الماء والزاد . وأخرج ابن المنذر عن على بن صالح قال : حدثنى مشيخة من جهينة . قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان ، فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه فى قوله : ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ قال : ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح فى الآية قال : استحملوه النعال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنما السبيل على الذين يستأذنونك** ﴾ قال : هى وما بعدها إلى قوله : ﴿**إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ فى المنافقين .

﴿ **يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يعتذرون إليكم** ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وإنما قال : ﴿ **إليهم** ﴾ أى إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل : إلى المدينة ؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها . ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجيب به عليهم ، فقال : ﴿ **قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم** ﴾ فنهاهم أولا عن الاعتذار بالباطل ، ثم علله بقوله : ﴿ **لن نؤمن لكم** ﴾ أى لن نصدقكم ، كأنهم ادعوا أنهم صادقون فى اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار ، وجملة ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ تعليلية للتى قبلها ، أى لا يقع منا تصديق

لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحى ما هو مناف لصدق اعتذاركم ، وإنما خص الرسول ﷺ بالجواب عليهم . فقال : ﴿**قل لا تعتذروا** ﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين ، لأنه ﷺ رأسهم ، والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير. ويحتمل أن يكون المراد بالضمير فى قوله : ﴿**إليكم** ﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور فى مثل هذا .

قوله : ﴿ **وسيرى الله عملكم** ﴾ أى ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه ؟ وقوله : ﴿ **ورسوله** ﴾ معطوف على الاسم الشريف. ووسط مفعول الرؤية إيذانا بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هى التى يدور عليها الإثابة أو العقوبة . وفى جملة : ﴿ **ثم تردون إلى عالم الغيب** ﴾ إلى آخرها تخويف شديد . لما هى مشتملة عليه من التهديد ، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع المضمر ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شىء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به ، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه.

ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو . وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ، ولا يؤاخذونهم بالتخلف ، ويظهرون الرضا عنهم ، كما يفيده ذكر الرضا من بعد. وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه ، وهو اعتذارهم الباطل . وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به تركهم والمهاجرة لهم . لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم . كما تفيده جملة : ﴿ **إنهم رجس**﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة . فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسا. أو أنهم ذوو رجس ، أى ذوو أعمال قبيحة. ومثله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ [التوبة : ٢٨] . وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير ، والتحذير من الشر . فليس لهم إلا الترك . وقوله: ﴿**ومأواهم جهنم** ﴾ من تمام التعليل . فإن من كان من أهل النار لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير. والمأوى : كل مكان يأوى إليه الشىء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا وإيواء. و ﴿ **جزاء** ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية . والباء فى ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ للسببية ، وجملة : ﴿ **يحلفون لكم** ﴾ بدل مما تقدم ، وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق ، والمحلوف عليه لمثل ما تقدم . وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم . ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل . فقال : ﴿ **فإن ترضوا عنهم** ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿ **فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة ، فينبغى لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم

لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم . والمقصود من إخبار اللّه سبحانه بعدم رضاه عنهم نهى المؤمنين عن ذلك ؛ لأن الرضا على من لا يرضى اللّه عليه مما لا ينعله مؤمن .

قوله : ﴿ **الأعراب أشد كفرا ونفاقا** ﴾ : لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب ، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ؛ لأنهم أقسى قلبا ، وأغلظ طبعا ، وأجفى قولا، وأبعد عن سماع كتب اللّه ، وما جاءت به رسله . والأعراب : هم من سكن البوادى بخلاف العرب ، فإنه عام لهذا النوع من بنى آدم سواء سكنوا البوادى أو القرى ، هكذا قال أهل اللغة . ولهذا قال سيبويه : إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب . قال النيسابورى : قال أهل اللغة : رجل عربى إذا كان نسبه إلى العرب ثابتا ، وجمعه عرب كالمجوسى والمجوس . واليهودى واليهود ؛ فالأعرابى إذا قيل له : يا عربى ، فرح ، وإذا قيل للعربى : يا أعرابى ، غضب. وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربى ، ومن نزل البادية فهو أعرابى ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب . وإنما هم عرب ، قال : قيل : إنماسمى العرب عربا ؛لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب ، وهى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم . وقيل : لأن ألسنتهم معربة عما فى ضمائرهم ، ولما فى لسانهم من الفصاحة والبلاغة. انتهى. ﴿ **وأجدر**﴾ معطوف على ﴿ **أشد** ﴾. ومعناه : أخلق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدر أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط ، وهو رفعه بالبناء. والمعنى : أنهم أحق وأخلق بألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه من الشرائع والأحكام ، لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل . ﴿ **واللّه عليم** ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم . وهؤلاء منهم ﴿**حكيم**﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر .

قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين ، الأول : هؤلاء ، والثانى : ﴿**ومن الأعراب من يؤمن باللّه** ﴾ والمغرم : الغرامة والخسران ، وهو ثانى مفعولى يتخذ لأنه بمعنى الجُعل ، والمعنى : اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل اللّه غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس بلازم له فى اعتقاده ، ولكنه ينفقه للرياء والتقية ؛ وقيل : أصل الغرم : اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس . و ﴿ **الدوائر** ﴾ جمع دائرة ، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية . وأصلها ما يحيط بالشىء ، ودوائر الزمان : نوبه وتصاريفه ودوله ، وكأنها لا تستعمل إلا فى المكروه ، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله:﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين . و ﴿ **السوء** ﴾ بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة كقولك: رجل صدق. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بضم السين ، وهو المكروه. قال الأخفش: أى

عليهم دائرة الهزيمة والشرّ . وقال الفراء : ﴿**عليهم دائرة السوء**﴾ : العذاب والبلاء . قال : والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة ، وبالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : دائرة البلاء والمكروه . ﴿**والله سميع**﴾ لما يقولونه ﴿ **عليم** ﴾ بما يضمرونه .

قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ هذا النوع الثانى من أنواع الأعراب كما تقدم ، أى يصدق بهما ﴿ **ويتخذ ما ينفق** ﴾ أى يجعل ما ينفقه فى سبيل الله ﴿ **قربات** ﴾ وهى جمع قربة . وهى ما يتقرب به إلى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قربانا ، والجمع قرب وقربات ، والمعنى : أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول القربات ﴿ **عند الله** ﴾ و سببا لـ ﴿**صلوات الرسول** ﴾ أى لدعوات الرسول لهم ، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ، ومنه قوله: ﴿وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم ﴾ [التوبة : ١٠٣] ومنه قوله ﷺ : «اللهم صل على آل أبى أوفى » [(١)] . ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقربا إلى الله مقبول واقع على الوجه الذى أرادوه فقال :﴿ **ألا إنها قربة لهم** ﴾ فأخبر سبحانه بقبولها خبرًا مؤكدا باسمية الجملة ، وحرفى التنبيه والتحقيق ، وفى هذا من التطييب لخواطرهم ، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره ، مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما ، والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير فى ﴿ **إنها** ﴾ راجع إلى « ما » فى﴿ **ما ينفق** ﴾ ، وتأنيثه باعتبار الخبر . وقرأ نافع فى رواية عنه :« قُربة » بضم الراء ، وقرأ الباقون بسكونها تخفيفا ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله : ﴿ **سيدخلهم الله فى رحمته** ﴾ والسين لتحقيق الوعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا ، وفى قوله : ﴿ **فأعرضوا عنهم** ﴾ قال : لما رجع النبى ﷺ قال للمؤمنين: «لا تكلموهم ولا تجالسوهم»، فأعرضوا عنهم كما أمر الله . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **لتعرضوا عنهم** ﴾ قال : لتجاوزوا عنهم . وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **الأعراب أشد كفرا ونفاقا** ﴾ قال : من منافقى المدينة ﴿ **وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ يعنى : الفرائضَ وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أسد وغطفان . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »[(٢)] وإسناد أحمد هكذا : حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى ، حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبى ﷺ

---

(١) أحمد ٤/ ٣٥٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ والبخارى فى الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم فى الزكاة (١٧٦/١٠٧٨) وأبو داود فى الزكاة (١٥٩٠) والنسائى ٥/ ٣١ وابن ماجة فى الزكاة (١٧٩٦) .

(٢) أحمد ١/ ٣٥٧ وأبو داود فى الصيد (٢٨٥٩) والترمذى فى الفتن (٢٢٥٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى ٧/ ١٩٥، ١٩٦ والبيهقى فى الشعب (٩٤٠٣) طـ. الكتب العلمية . عن أبى هريرة وليس عن ابن عباس .

فذكره . قال فى التقريب : وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة ، ووهم من قال: إنه إسرائيل بن موسى . وقال الترمذى بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى . وأخرج أبو داود والبيهقى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعدا » (١) .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ قال: يعنى بالمغرم أنه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطى من يعطى من الصدقات كرها . ﴿ **ويتربص بكم الدوائر** ﴾ المهلكات . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا، ويقاتلوا ، ويرون نفقاتهم مغرما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال : كنا عشرة ولد مقرن . فنزلت فينا : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ يعنى استغفار النبى ﷺ .

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾** .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٧١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ وأبو داود فى الصيد (٢٨٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٤٩ : «رواه أحمد والبزار ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح غلا الحسن بن الحكم النخعى وهو ثقة » .

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار . وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة . وأن منهم التابعين لهم . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ : «والأنصار » بالرفع على ﴿ **والسابقون** ﴾ وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله : ﴿**والسابقون**﴾ وفى الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب وطائفة . أو الذين شهدوا بيعة الرضوان. وهى بيعة الحديبية فى قول الشعبى. أو أهل بدر فى قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار . ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها . قال أبو منصور البغدادى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة. ثم الستة الباقون . ثم البدريون . ثم أصحاب أحد . ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

قوله: ﴿ **والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الذين اتبعوهم» محذوف الواو وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار . فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت . فسأل أبى بن كعب فصدق زيدا فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه . ومعنى ﴿ **الذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ : الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحًا ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبى ﷺ ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية ، فتكون «من» فى قوله : ﴿ **من المهاجرين** ﴾ على هذا للتبعيض ، وقيل : إنها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ، ويكون المراد بالتابعين : من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة . وقوله :﴿**بإحسان** ﴾ قيد للتابعين ، أى والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان فى الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين . قوله : ﴿ **رضى الله عنهم** ﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه . ومعنى رضاه سبحانه عنهم : أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ بما أعطاهم من فضله . ومع رضاه عنهم فقد ﴿ **أعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار** ﴾ فى الدار الآخرة . وقرأ ابن كثير :« تجرى من تحتها الأنهار » بزيادة «من ». وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز .

قوله : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون** ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ، ومن يقرب منها من الأعراب ، ﴿ **وممن حولكم** ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ **من الأعراب** ﴾ بيان ، وهو فى محل نصب على الحال ، ﴿**ومنافقون**﴾ هو المبتدأ . قيل : وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار . وجملة ﴿**ومن أهل المدينة مردوا على النفاق** ﴾ معطوفة على الجملة الأولى عطف جملة على جملة . وقيل : إن من أهل المدينة عطف على الخبر فى الجملة الأولى . فعلى الأول يكون المبتدأ مقدرًا ، أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثانى يكون التقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة

منافقون مردوا ، ولكون جملة ﴿**مردوا على النفاق**﴾ مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرد: اللين والملاسة والتجرد ، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه : غصن أمرد : لا ورق عليه ، وفرس أمرد : لا شعر فيه ، وغلام أمرد : لا شعر بوجهه ، وأرض مرداء : لا نبات فيها ، وصرح ممرد : مجرد ؛ فالمعنى : أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم يتثنوا عنه . قال ابن زيد : معناه : لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة : ﴿ **لا تعلمهم** ﴾ مبينة للجملة الأولى ، وهى ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ أى ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفى أمرهم على رسول الله ﷺ فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ ، وجملة: ﴿ **نحن نعلمهم** ﴾ مقررة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر . ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر . ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿ **سنعذبهم مرتين**﴾ قيل : المراد بالمرتين : عذاب الدنيا بالقتل والسبى ، وعذاب الآخرة ، وقيل : الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب فى الآخرة . وقيل : المصائب فى أموالهم وأولادهم . وعذاب القبر ، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه . والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة ، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة ، وهو المراد بقوله : ﴿ **ثم يردون إلى عذاب عظيم**﴾ ومن قال : إن العذاب فى المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال : معنى قوله ﴿ **ثم يردون إلى عذاب عظيم** ﴾ : أنهم يردون بعد عذابهم فى النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها، أو أنهم يعذبون فى النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار . ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار .

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون فى دينهم فقال : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم** ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ **منافقون** ﴾ أى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون . ويجوز أن يكون ﴿**آخرون**﴾ مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفته ، و﴿**خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا** ﴾ خبره ، والمعنى : أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم . والمراد بالعمل الصالح : ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن . والمراد بالعمل السيئ : هو تخلفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا ، وهو الاعتراف به والتوبة عنه ، وأصل الاعتراف :الإقرار بالشىء . ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضى والعزم على تركه فى الحال والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتى بيانه إن شاء الله . ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء . ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك : بعت الشاة شاة ودرهما[1] : أى بدرهم . وفى قوله : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ دليل على أنه

(١) فى المطبوعة : «دردهما » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة ، أو أن مقدمة التوبة وهى الاعتراف قامت مقام التوبة. وحرف الترجى وهو « عسى »هو فى كلام الله سبحانه يفيد تحقيق الوقوع ؛ لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿ **إن الله غفور رحيم**﴾ أى يغفر الذنوب ويتفضل على عباده.

قوله : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها ، فقيل: هى صدقة الفرض. وقيل : هى مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، و « من » للتبعيض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة . والصدقة مأخوذة من الصدق ، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه . قوله : ﴿ **تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ الضمير فى الفعلين للنبى ﷺ ، أى تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم . وقيل : الضمير فى ﴿**تطهرهم**﴾ للصدقة ، أى تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم. والضمير فى ﴿ **تزكيهم** ﴾ للنبى ﷺ ، أى تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة . والأول أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين المتعاطفين ، وعلى الأول فالفعلان منتصبان على الحال ، وعلى الثانى فالفعل الأول صفة لصدقة ، والثانى حال منه ﷺ . ومعنى التطهير : إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب . ومعنى التزكية : المبالغة فى التطهير . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبى ﷺ ، أى فإنك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ، ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم . وقد قرأ الحسن : بجزم «تطهرهم ». وعلى هذه القراءة فيكون ﴿**وتزكيهم** ﴾ على تقدير مبتدأ ، أى وأنت تزكيهم بها . قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ أى ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم. قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعًا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب :الدعاء . ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال :﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿**صلاتك** ﴾ بالتوحيد . وقرأ الباقون بالجمع ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وتطمئن به .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا . قال الله: ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى غير التائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم ﴿ **أن الله هو يقبل التوبة**﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين . وقرئ :« ألم تعلموا » بالفوقية ، وهو إما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ ، أى يتقبلها منهم ، وفى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها . وقوله : ﴿ **وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه ، أى أن هذا شأنه سبحانه . وفى صيغة المبالغة فى التواب وفى

الرحيم مع توسيط ضمير الفصل ، والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم مالا يخفى .

قوله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ فيه تخويف وتهديد ، أى إن عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل ، وفيه أيضا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شرا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا : العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿ **وستردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى وستردون بعد الموت إلى الله سبحانه الذى يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه . وفى تقديم الغيب على الشهادة إشعار بسعة علمه عز وجل ، وأنه لا يخفى عليه شىء ، ويستوى عنده كل معلوم ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم إليه فقال : ﴿ **فينبئكم** ﴾ أى يخبركم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين : الأول : المنافقون الذين مردوا على النفاق ، والثانى : التائبون المعترفون بذنوبهم ، الثالث : الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال ، وهم المرجون لأمر الله ، من أرجيته وأرجأته : إذا أخرته . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص : ﴿ **مرجون** ﴾ بالواو من غير همزة وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم ، والمعنى : أنهم مؤخرون فى تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه فى شأنهم ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصا تاما . والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ حال كونهم ، إما معذبين، وإما متوبا عليهم ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **حكيم** ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو نعيم فى المعرفة عن أبى موسى؛ أنه سئل عن قوله : ﴿**والسابقون الأولون** ﴾ فقال : هم الذين صلوا القبلتين جميعا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أبو بكر وعمر وعلى وسلمان وعمار بن ياسر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن الشعبى قال : هم من أدرك بيعة الرضوان . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ قال : التابعون . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد

قال : قلت لمحمد بن كعب القرظى : أخبرنى عن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أريد الفتن ، قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبى ﷺ وأوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له : وفى أى موضع أوجب الله لهم الجنة فى كتابه ؟ قال : ألا تقرؤون قوله تعالى : ﴿**والسابقون الأولون** ﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبى ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم ، قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتدون بهم فى أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم فى غير ذلك . قال أبو صخر : فوالله لكأنى لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها على محمد بن كعب[1]. وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن أبى كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبى لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ إلى قوله : ﴿**ورضوا عنه** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا لأمتى كلهم ، وليس بعد الرضا سخط » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وممن حولكم من الأعراب** ﴾ الآية ، قال : قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبا ، فقال : « قم يا فلان ، فاخرج فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق » ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا ، واختبؤوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا . فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو العذاب الأول ، والعذاب الثانى عذاب القبر [2] . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب** ﴾ قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ قال : أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب آخرون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبى ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**سنعذبهم مرتين** ﴾ قال : بالجوع والقتل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك قال : بالجوع وعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن قتادة قال : عذاب فى القبر ، وعذاب فى النار . وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا فى تعيين العذابين . والظاهر ما قدمنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا** ﴾ قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم

(١) فى المطبوعة: «ابن كعب» بدون «محمد».
(٢) ابن جرير ١١/٨ .

أنفسهم بسوارى المسجد ، وكان ممر النبى ﷺ إذا رجع عليهم فلما رآهم قال : «من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، حتى تطلقهم وتعذرهم ، قال : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فنزلت : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ و«عسى » من الله واجب ، فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، قال : « ما أمرت أن آخذ أموالكم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ يعنى : إن استقاموا [١] . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله سواء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد فى قوله: ﴿ **اعترفوا بذنوبهم** ﴾ قال : هو أبولبابة إذ قال لقريظة ما قال وأشار إلى حلقه بأن محمدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة فى كتب السير . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **خلطوا عملا صالحا** ﴾ قال غزوهم مع رسول الله ﷺ ﴿ **وآخر سيئا** ﴾ قال : تخلفهم عنه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ قال : استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها ﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ قال : رحمة لهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال : « اللهم صل على آل فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى»[٢] .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ قال : هذا وعيد من الله عز وجل . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، وابن أبى الدنيا ، والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » [٣] . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وآخرون**

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٧٢ . (٢) سبق تخريجه .

(٣) أحمد ٣/ ٢٨ وأبو يعلى (١٣٧٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٩٤٠) .

مرجون لأمر الله﴾ قال : هم الثلاثة الذين خلفوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ إما يعذبهم ﴾ يقول: يميتهم على معصية ﴿ وإما يتوب عليهم ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾ .

لما ذكر الله أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، فيكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا ، على أن ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ، وخبره « منهم » المحذوف ، والجملة معطوفة على ما تقدمها ، ويجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذم . وقرأ المدنيون وابن عامر « الذين اتخذوا » بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ لا تقم ﴾ قاله الكسائى . وقال النحاس : إن الخبر هو ﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ﴾ وقيل : الخبر محذوف ، والتقدير : يعذبون ، وسيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار .

و ﴿ ضرارا ﴾ منصوب على المصدرية ، أو على المفعولية . ﴿ وكفرا وتفريقا وإرصادا ﴾ معطوفة على ﴿ضرارا﴾ . فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة : الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضارة . الثانى : الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق . الثالث : التفريق بين المؤمنين ؛ لأنهم أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى . الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أى الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله . قال الزجاج : الإرصاد : الانتظار . وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة . وقال الأكثرون : هو الإعداد ، والمعنى متقارب . يقال : أرصدت لكذا : إذا أعددته مرتقبا له به . وقال أبو زيد : يقال : رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشرّ . وقال ابن الأعرابى : لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه : ارتقبت ، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ،

ومنهم أبو عامر الراهب ، أى أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله: ﴿**من قبل**﴾ متعلق بـ ﴿ **اتخذوا** ﴾ أى اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار . أو متعلق بـ ﴿ **حارب** ﴾ أى لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار .

قوله : ﴿ **وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى** ﴾ أى ما أردنا إلا الخصلة الحسنى ، وهى الرفق بالمسلمين ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ فيما حلفوا عليه . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار ، فقال :﴿ **لا تقم فيه أبدا** ﴾ أى فى وقت من الأوقات ، والنهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه . وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال : فلان يقوم الليل ، أى يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه » [1] . ثم ذكر الله سبحانه علة النهى عن القيام فيه بقوله: ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه** ﴾ واللام فى ﴿ **لمسجد** ﴾ لام القسم ، وقيل : لام الابتداء . وفى ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفعه . ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التى تتقى بها العقوبة.

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبى وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى ﷺ . والأول أرجح لما سيأتى قريبا إن شاء الله .

و ﴿ **من أول يوم** ﴾ متعلق بأسس ، أى أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه . قال بعض النحاة : إن ﴿**من** ﴾ هنا بمعنى منذ ، أى منذ أوّل يوم ابتدئ ببنائه . وقوله : ﴿ **أحق أن تقوم فيه** ﴾ خبر المبتدأ ، والمعنى : لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله ، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم ، ولكون ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه ، أى كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحال فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد . ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه . وقيل : معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار . والأوّل أولى . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعا ، وهذا ضعيف جدا . ومعنى محبة الله لهم الرضا عنهم ، والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه .

---

(١) أحمد ٢/ ٢٨١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ والبخارى فى الإيمان (٣٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٩ / ١٧٣) وأبو داود فى الصلاة (١٣٧١) والترمذى فى الصوم (٨٠٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٣/ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤/ ١٥٤ ــ ١٥٧ ، ٨/ ١١٨ ، والدارمى ٢/ ٢٦ .

ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا ، فقال : ﴿ **أفمن أسس بنيانه** ﴾ والهمزة للإنكار التقريرى ، والبنيان مصدر كالعمران ، وأريد به المبنى ، والجملة مستأنفة ، والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى اللّه ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضدّ ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ **خير** ﴾ ، وقرئ : «أسس بنيانه » على بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرئ على البناء للمجهول ، وقرئ : « أساس بنيانه » بإضافة أساس إلى بنيانه ، وقرئ : « أسّ بنيانه» والمراد : أصول البناء . وحكى أبو حاتم قراءة أخرى وهى : « آساس بنيانه » على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس

والشفا : الشفير ، والجرف : ما يتجرف بالسيول ، وهى الجوانب التى تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشيء من أصله ، وقرئ بضم الراء من « جرف » وبإسكانها . والهار : الساقط ، يقال : هار البناء : إذا سقط ، وأصله : هائر كما قالوا : شاك السلاح وشائك ، كذا قال الزجاج . وقال أبو حاتم : إن أصله : هاور . قال فى شمس العلوم : الجرف ما جرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اهـ . جعل الله سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ، ثم قال : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ وفاعل فانهار ضمير يعود على الجرف ، أى فانهار الجرف بالبنيان فى النار ، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ **به** ﴾ يعود إلى ﴿ **من** ﴾ وهو البانى ، والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو البانى فى نار جهنم . وجاء بالانهيار الذى هو للجرف ترشيحا للمجاز . وسبحان اللّه ما أبلغ هذا الكلام ، وأقوى تراكيبه ، وأوقع معناه ، وأفصح مبناه .

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم . واستمرار ترددهم وشكهم فقال : ﴿**لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ أى شكا فى قلوبهم ونفاقا . ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللّه للمرء مذهب

وقيل : معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه . وقال المبرد : أى حرارة وغيظا . وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين فى دينهم . ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقا وتصميما على الكفر ، ومقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها ، وهو قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ أى لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعا ، وتتفرّق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف ، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكر

التقطع تصويرا لحال زوال الريبة . وقيل : معناه : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب وأبو جعفر بفتح حرف المضارعة. وقرأ الجمهور بضمها . وروى عن يعقوب أنه قرأ : « تقطع » بالتخفيف ، والخطاب للنبى ﷺ ، أى إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم . وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود : « ولو تقطعت قلوبهم » . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم : « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا**﴾ قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم . فآتى بجند من الروم . فأخرج محمدا وأصحابه ؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله : ﴿ **لا تقم فيه أبدا** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد الله بن حنيف ووديعة بن حزام ومجمع بن جارية الأنصارى فبنوا مسجد النفاق . فقال رسول الله ﷺ لبجدح : « ويلك يا بجدح ، ما أردت إلى ما أرى » ، فقال : يارسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاذب ، فصدّقه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرار وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله**﴾ يعنى : رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول الله ﷺ وكان قد انطلق إلى هرقل ، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلى فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربا للّه ولرسوله (٢) .

وأخرج ابن إسحاق وابن مردويه عنه أيضا قال : دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه . وخرج أهله فتفرّقوا عنه . فأنزل اللّه هذه الآية . ولعل فى هذه الرواية حذفا بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وبين قوله : فقال مالك لعاصم (٣) ، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، قال : أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا : يا رسول

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٩ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) ابن جرير ١١/ ١٩ .

(٣) ابن إسحاق : ١٧١ ، ١٧٢ .

الله، إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه ؛ قال : « إنى على جناح سفر » ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى ، وأخاه عاصم بن عدى أحد بنى العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان . وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا** ﴾ إلى آخر القصة . واخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم : إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثنى عشر رجلا ، وذكرا أسماءهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبوالشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان : رجل من بنى خدرة ، وفى لفظ : تماريت أنا ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال الخدرى : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال العمرى : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : «هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله ﷺ ، وقال : « فى ذلك خير كثير » يعنى مسجد قباء[1]. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبو يعلى، وابن حبان والطبرانى ، والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب قال : سألت النبى ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى قال : «هو مسجدى هذا » [2] . وأخرج الطبرانى ، والضياء المقدسى فى المختارة ، عن زيد بن ثابت، مرفوعاً مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه والطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذى أسس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبى ﷺ . قال عروة : مسجد النبى ﷺ خير منه ، إنما أنزلت فى مسجد قباء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذى أسس على التقوى : مسجد النبى ﷺ . وأخرج المذكوران عن أبى سعيد الخدرى مثله . وقد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم . وأخرج ابن جرير وابن

---

(١) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٢ وأحمد ٣/ ٢٣ ، ٢٤ ، ٩١ ، ومسلم فى الحج (١٣٩٨/ ٥١٤) والترمذى فى الصلاة (٣٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وفى التفسير (٣٠٩٩) وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب» والنسائى فى التفسير (٢٤٨) وابن جرير ١١/ ٢١ وابن حبان (١٦٠٤) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى، و البيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥/ ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٣ .

المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه مسجد قباء . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله .

ولا يخفاك أن النبى ﷺ قد عين هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده ﷺ كما قدمنا من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم ، ولا يصح لإيراده فى مقابله ما قد صحّ عن النبى ﷺ ، ولا فائدة فى إيراد ما ورد فى فضل الصلاة فى مسجد قباء ، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذى أسس على التقوى ، على أن ما ورد فى فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد فى فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تعمّ .

وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجة وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال : وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفى إسناده يونس بن الحارث ، وهو ضعيف (١) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته ، فقال النبى ﷺ : « هو هذا » . وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصارى ؛ أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تتطهرون به ؟ » قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا (٢) . رواه أحمد عن حسن بن محمد ، حدّثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره . وقد أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الجارود فى المنتقى ، والدارقطنى والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور فما طهوركم هذا ؟» قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : « فهل مع ذلك غيره ؟»

---

(١) أبو داود فى الطهارة (٤٤) والترمذى فى التفسير (٣١٠٠) وقال : « حديث غريب » وابن ماجة فى الطهارة (٣٥٧) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٢٢ وابن خزيمة (٨٣) والطبرانى (١١٠٦٥) ، وصححه الحاكم ١/ ١٥٥ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢١٧ : « إسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه » .

قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء ، قال : « هو ذاك فعليكموه » (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى تاريخه وابن جرير والبغوى فى معجمه ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال : لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ يعنى : قوله تعالى : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ ، فقالوا : يا رسول اللّه ، إنا لنجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم (٢) . وإسناد أحمد فى هذا الحديث هكذا : حدّثنا يحيى بن آدم حدّثنى مالك ، يعنى ابن مغول ، سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام . وقد روى عن جماعة من التابعين فى ذكر سبب نزول الآية نحو هذا . ولا يخفاك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، وبعضها ضعيف ، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى ﷺ فى صحتها وصراحتها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ قال : يعنى قواعده فى نار جهنم. وأخرج مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ قال : يعنى الشك ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ يعنى الموت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبى ثابت فى قوله : ﴿ **ريبة فى قلبوهم** ﴾ قال : غيظا فى قلوبهم ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلى أن يموتوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلا أن يتوبوا .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)** ﴾ .

(١) ابن ماجة فى الطهارة (٣٥٥) والدارقطنى ١/ ٦٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن أبى شيبة ١/ ١٥٣ وأحمد ٦/ ٦ وابن جرير ١١/ ٢٢ .

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك . وذكر أقسامهم . وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه . وذكر الشراء تمثيل كما فى قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة : ١٦] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشىء عن الملك بشىء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التى أعدها للمؤمنين ، أى بأن يكونوا من جملة أهل الجنة . وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الأعلاق [1] . والجود بها غاية الجود :

يجود بالنفس أن ضن الجبان بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم ما يطلبه العباد . ويتوسلون إليه بالأعمال ؛ والمراد بالأنفس هنا أنفس المجاهدين. وبالأموال ما ينفقونه فى الجهاد . قوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيل الله**﴾ بيان للبيع الذى يقتضيه الاشتراء المذكور كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل : يقاتلون فى سبيل الله ، ثم بين هذه المقاتلة فى سبيل الله بقوله : ﴿ **فيقتلون ويقتلون** ﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء فى الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار . قرأ الأعمش والنخعى وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المبنى للمفعول على المبنى للفاعل . وقرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول . وقوله : ﴿ **وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله فى التوراة والإنجيل كما وقع فى القرآن ، وانتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ و﴿**حقا**﴾ على المصدرية أو الثانى نعت للأوّل ، و ﴿ **فى التوراة** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى وعدا ثابتا فيها .

قوله : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ما لا يخفى فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهى كون الجنة قد صارت ملكا لهم ، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لابد من حصول الموعود به فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وحبوراً ، فقال: ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به** ﴾ أى أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هى إظهار السرور ، وظهوره يكون فى بشرة الوجه ، ولذا يقال : أسارير الوجه ، أى التى يظهر فيها السرور . وقد تقدم إيضاح هذا ، والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله . والمعنى : أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك**﴾ إلى الجنة ، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب

(١) علق بقلبه علاقة وهو الحب اللازم للقلب . اللسان ١٠/ ٢٦٢ .

بالعظم يدل على أنه فوز لا فوز مثله .

قوله : ﴿ **التائبون** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم التائبون ، يعنى : المؤمنون ، والتائب الراجع ، أى هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة . وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله : ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر ، أى التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا . قال : وهذا أحسن ، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله : ﴿ **اشترى من المؤمنين** ﴾ لكان الوعد خاصا بمجاهدين ، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط ، أى لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : التائبين العابدين إلى آخرها ــ وفيه وجهان : أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين ، الثانى : أن النصب على المدح . وقيل : إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير ﴿ **يقاتلون** ﴾ ، وجوز صاحب الكشاف أن يكون ﴿ **التائبون** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**العابدون**﴾ القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص و ﴿ **الحامدون** ﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء . و ﴿ **السائحون** ﴾ قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عابدات سائحات ﴾ [التحريم : ٥] وإنما قيل للصائم سائح ؛ لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض ، ومنه قول أبى طالب بن عبد المطلب :

وبالسائحين لا يذوقون فطرة لربهم والراكدات العوامل

وقال آخر :

تــراه يصــلى لـيــله ونهـاره يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج : ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض ؛ وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : السائحون المهاجرون . وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر . والسياحة فى اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ، وهى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات الله سبحانه ، و ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ معناه المصلون ، و ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة ﴿ **والناهون عن المنكر** ﴾ القائمون بالإنكار على من فعل منكراً ، أى شيئا ينكره الشرع ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين ، وهما : ﴿ **والناهون عن المنكر والحافظون** ﴾ إلخ ، لأن

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه . وقيل : إن العطف فى الصفات يجىء بالواو وبغيرها كقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [غافر : ٢] . وقيل : إن الواو زائدة . وقيل : هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم:٥] وقوله : ﴿ وفتحت أبوابها﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : ٢٢] وقد أنكروا الثمانية؛ أبو على الفارسى وناظره فى ذلك ابن خالويه ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » ، قال : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو فى المسجد : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ فكبر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ قال : « نعم » ، فقال الأنصارى : بيع ربيح لا نقيل ، ولا نستقيل . وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ؛ أن النبى ﷺ اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا ينازعوا فى الأمر أهله . ويمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، قالوا : نعم ؛ قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يا رسول الله . فما لنا ؟ قال : « الجنة » . وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس فى قصة العقبة ما يدل على أنها سبب نزول الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع فهو فى سبيل الله ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس قال : الشهيد من كان له التسع الخصال المذكورة فى هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء » [٢] .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال : سئل النبى ﷺ عن السائحين فقال : « هم الصائمون » [٣] . وأخرج الفريابى وابن جرير ، والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق عبيد بن

---

(١) ابن جرير ١١/ ٢٦ . (٢) البيهقى فى الشعب (٦٣ ٠ ٤) . (٣) ابن جرير ١١/ ٢٨ .

عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار ، من طريق أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. وقد روى عن أبى هريرة موقوفا ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد بن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية . وقد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير وابن المنذر ، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ ، ومنهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال : «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » (١) وصححه عبد الحق . وأخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال : هذه أعمال قال فيها أصحاب النبى ﷺ : إن الله قضى على نفسه فى التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله . وأخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة . قال : وقال ابن عباس : من مات وفيه تسع فهو شهيد . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾ يعنى بالجنة ، ثم قال: ﴿**التائبون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ يعنى القائمين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد . وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم .

﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)** ﴾ .

لما بين الله سبحانه فى أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا ، وصرح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولى قربى . وأن القرابة فى مثل هذا الحكم لا تأثير لها . وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ **ما كان** ﴾ فى القرآن يأتى على وجهين : الأول : على النفى نحو : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ [آل عمران: ١٤٥] والآخر : على معنى النهى نحو : ﴿ ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب :٣٥] و ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ، ولا ينافى

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٤٨٦) والطبرانى (٧٧٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ٧٣ ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب (٣٩٢٢) .

هذا ما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [(١)] ؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين . وعلى فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول ، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة . وسيأتى . فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما فى صحيح مسلم عن عبد الله . قال : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[(٢)].
وفى البخارى : أن النبى ﷺ ذكر نبيا قبله شجه قومه ، فجعل النبى ﷺ يخبر عنه بأنه قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [(٣)] . قوله : ﴿ **من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهى عن الاستغفار . والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ [النساء : ٤٨] . فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

قوله : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه** ﴾ الآية : ذكر الله سبحانه السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار . ومن أعداء الله ، فلا حاجة إلى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله . فإن ثبوت هذه العدواة تدل على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل . وقيل : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه : دعاؤه إلى الإسلام ، وهو ضعيف جدا . وقيل : المراد بالاستغفار فى هذه الآية : النهى عن الصلاة على جنائز الكفار ، فهو كقوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ [التوبة : ٨٤] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم ، فقال : ﴿ **إن إبراهيم لأواه** ﴾ وهو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الأواه ، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : إنه الذى يكثر الدعاء . وقال الحسن وقتادة : إنه الرحيم بعباد الله . وروى عن ابن عباس : أنه المؤمن بلغة الحبشة . وقال الكلبى : إنه الذى يذكر الله فى الأرض القفر [(٤)] . وروى مثله عن ابن المسيب. وقيل : الذى يكثر الذكر لله من غير تقييد ، روى ذلك عن عقبة بن عامر . وقيل : هو الذى

(١) أحمد ١/ ٤٤١ والطبرانى (٥٦٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) مسلم فى الجهاد (١٧٩٢/ ١٠٥). (٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٧٧)، وفى استتابة المرتدين (٦٩٢٩).
(٤) القفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ . اللسان ٥/ ١١٠ .

يكثر التلاوة ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل: إنه الفقيه ، قاله مجاهد والنخعى . وقيل : المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد . وقيل هو الذى إذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روى ذلك عن أبى أيوب . وقيل : هو الشفيق ، قاله عبد العزيز بن يحيى . وقيل : إنه المعلم للخير . وقيل : إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله ، قاله عطاء . والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال : إنه الذى يكثر التأوه من ذنوبه ، فيقول مثلا : آه من ذنوبى آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك ، وبه قال الفراء ، وهو مروى عن أبى ذر . ومعنى التأوه : هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء . قال فى الصحاح : وقد أوه الرجل تأويها ، وتأوه تأوها إذا قال أوه ، والاسم منه آهة بالمدّ ، قال :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

و ﴿ **الحليم** ﴾ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لا يعاقب أحدا قط إلا لله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال النبى ﷺ : « أى عم ، قل لا إله إلا اللّه أحاج لك بها عند اللّه » ، فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله . فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك مالم أنه عنك » . فنزلت : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية : وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ [1]. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء فى المختارة عن علىّ قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت: ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية [2] . وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر ، عن علىّ قال : أخبرت النبى ﷺ بموت أبى طالب ، فبكى ، فقال : « اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » ، ففعلت ، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية .

وقد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبى ﷺ لأبى طالب من طرق كثيرة : منها عن

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٦٠) و فى مناقب الأنصار (٣٨٨٤) وفى التفسير (٤٦٧٥) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩) والنسائى٤/ ٩٠، ٩١.

(٢) أحمد ١/ ١٣٠ ، ١٣١ والترمذى فى التفسير (٣١٠١) وقال : « حديث حسن » والنسائى ٤/ ٩١ وابن جرير ١١/ ٣٢ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٥ والبيهقى فى الشعب (٩٣٧٨) ط : الكتب العلمية .

محمد بن كعب عند ابن أبى حاتم وأبى الشيخ وهو مرسل . ومنها عن عمرو بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضا . ومنها عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضا . ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد وأبى الشيخ وابن عساكر . ومنها عن الحسن البصرى عند ابن عساكر وهو مرسل . وروى أنها نزلت بسبب زيارة النبى ﷺ لقبر أمه واستغفاره لها من طريق ابن عباس عند الطبرانى [١] وابن مردويه ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبى حاتم والحاكم [٢] وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وعن بريدة عند ابن مردويه ، وما فى الصحيحين مقدم على مالم يكن فيهما على فرض أنه صحيح . فكيف وهو ضعيف غالبهُ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، فى قوله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى قوله: ﴿ كما ربيانى صغيرا﴾ [الإسراء : ٢٣، ٢٤] . قال : ثم استثنى فقال : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله** ﴾ قال : تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو بكر الشافعى فى فوائده ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وأخرج ابن مردويه عن جابر ، أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعه فإنه أوّاه » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إنه أواه » ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء . وأخرجه أيضا أحمد قال : حدثنا موسى بن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علىّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الأواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الدعاء » [٣] . وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة فى معنى الأواه ، وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدّثنى المثنى حدثنى الحجاج بن منهال حدثنا عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد فذكره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ﴾

(١) الطبرانى (١٢٠٤٩) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . (٣) ابن جرير ١١/ ٣٧ .

مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ .

لما نزلت الآية المتقدمة فى النهى عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **وما كان الله ليضل قوما** ﴾ إلخ ، أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام ، والقيام بشرائعه مالم يقدموا على شىء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولايؤاخذون به ، ومعنى : ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ، ومن سائر الأشياء التى خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع يتصرف فى ملكه بما شاء من التصرفات التى من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه ، ويميت من قضت مشيئته بإماتته ، وما لعباده من دونه من ولى يواليهم ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى ، فإن القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر أثرا ، بل التصرف فى جميع الأشياء لله وحده .

قوله : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإذن فى التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين ، وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار ، وقد تكون التوبة منه تعالى على النبى من باب أنه ترك ماهو الأولى والأليق كما فى قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة : ٤٣] . ويجوز أن يكون ذكر النبى ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب . ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [1] ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبى ﷺ فلم يتخلفوا عنه ، وساعة العسرة هى غزوة تبوك ، فإنهم كانوا فى عسرة شديدة ، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها ، والعسرة: صعوبة الأمر .

قوله: ﴿ **من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ فى ﴿ **كاد**﴾ ضمير الشأن، و ﴿ **قلوب** ﴾

---

(١) البخارى فى المغازى (٤٢٧٤) وفى الجهاد (٣٠٠٧) وفى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤/ ١٦١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٥) وقال : « حسن صحيح » .

مرفوع بـ ﴿ **تزيغ** ﴾ عند سيبويه . وقيل : هى مرفوعة بـ ﴿ **كاد** ﴾ ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص : « يزيغ » بالتحتية . قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحتية فلا يجوز له أن يرفع القلوب بـ ﴿ **كاد** ﴾ . قال النحاس : والذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع ، ومعنى ﴿ **تزيغ** ﴾ : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقيل : معناه : تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة . وقيل : معناه : تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة . وفى قراءة ابن مسعود : « من بعد ما زاغت » وهم المتخلفون على هذه القراءة ، وفى تكرير التوبة عليهم بقوله : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار .

قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ أى وتاب على الثلاثة الذين خلفوا ، أى أخروا ولم تقبل توبتهم فى الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلانا فارقته . وقرأ عكرمة بن خالد : « خلفوا » بالتخفيف ، أى أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو . وقرأ جعفر بن محمد « خالفوا » وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك . ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبى ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم . وقيل : معنى ﴿**خلفوا**﴾: فسدوا ، مأخوذ من خلوف الفم . قوله : ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾ معناه : أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، و « ما » مصدرية ، أى برحبها ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبى ﷺ نهى الناس أن يكالموهم ، والرحب : الواسع ، يقال : منزل رحب ورحيب ورحاب . وفى هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصى تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصى . ومعنى ضيق أنفسهم عليهم : أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، وعبر بالظن فى قوله : ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾ عن العلم ، أى علموا أن لا ملجأ يلجؤون إليه قط إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار . قوله : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ أى رجع عليهم بالقبول والرحمة ، وأنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿ **إن الله هو التواب** ﴾ أى الكثير القبول لتوبة التائبين ، ﴿ **الرحيم** ﴾ أى الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده . قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله ، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم**﴾

قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى . قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : بيان الله للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصة . وفى بيانه طاعته ومعصيته عاما [١] ما فعلوا أو تركوا .

وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، أنه قال لعمر بن الخطاب : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا فأصبنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر [٢] . وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن منده وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله فى قوله : ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر منها فى الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة فى كتب الحديث والسير [٣] ، وهى معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال: يعنى : خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب الله على أبى لبابة وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن نافع فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين**﴾ قال : نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا ، قيل لهم : كونوا مع محمد وأصحابه . وأخرج ابن

---

(١) فى المطبوعة: «غامض» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ١١/ ٤٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٣١ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٧٧) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩/ ٥٣) وأبو داود (٢٢٠٢) والنسائى فى التفسير (٢٥٢).

جرير عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ قال : مع أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك فى الآية قال: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مع على بن أبى طالب . وأخرج ابن عساكر عن أبى جعفر قال : مع الثلاثة الذين خلفوا .

﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ .

فى قوله : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ إلخ زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وتحريم التخلف عنه ، أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿ **ومن حولهم من الأعراب** ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ **أن يتخلفوا عن رسول الله** ﴾ ﷺ فى غزوة تبوك ، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿ **ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه**﴾ أى وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا، أى ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق ، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وفى هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد . والتهييج لهم ، والإزراء عليهم . والإشارة بقوله: ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ﷺ ، أى ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد . والظمأ : العطش . والنصب: التعب . والمخمصة: المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضمور البطن . وقرأ عبيد بن عمير «ظماء » بالمد . وقرأ غيره بالقصر ، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . و « لا » فى هذه المواضع زائدة للتأكيد . ومعنى ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ فى طاعة الله .

قوله : ﴿ **ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار** ﴾ أى لا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا ﴿ **ولا ينالون من عدو نيلا** ﴾ أى يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو هزيمة أو غنيمة ، وأصله : من نلت الشىء أنال ، أى أصيب . قال الكسائى : هو من قولهم : أمر منيل منه ، وليس هو من التناول ، إنما التناول من نلته بالعطية . قال غيره :

نلت أنول من العطية ، ونلته أناله : أدركته ، والضمير فى ﴿ **به** ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة ، والعمل الصالح : الحسنة المقبولة ، أى إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ فى حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا .

قوله : ﴿ **ولا ينفقون نفقة** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى ولا يقع منهم الإنفاق فى الحرب وإن كان شيئا صغيرا يسيرا ﴿ **ولا يقطعون واديا** ﴾ وهو فى الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل ، والعرب تقول : واد وأودية على غير قياس . قال النحاس : ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعله ﴿ **إلا كتب لهم** ﴾ أى كتب لهم ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر فى الجهاد ﴿ **ليجزيهم الله** ﴾ به ﴿ **أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال ، ويجوز أن يكون فى قوله : ﴿ **إلا كتب لهم** ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح . وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها ،هى قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض ، وسيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصحابة قال : لما نزلت : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿**ما كان لأهل المدينة** ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى وعبدالله بن المبارك وإبراهيم بن محمد الفزارى وعيسى بن يوسف السبيعى ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **ولا ينالون من عدو نيلا** ﴾ قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة .

﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)** ﴾ .

اختلف المفسرون فى معنى ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ : فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد ؛ لأنه سبحانه لما بلغ فى الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك ، أى ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة . قالوا : ويكون الضمير

فى قوله : ﴿**ليتفقهوا**﴾ عائدا إلى الفرقة الباقية . والمعنى : أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم . وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين ، جعله الله سبحانه متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأول سفر الجهاد . والثانى : السفر لطلب العلم . ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر . والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول . ومعنى ﴿ **فلولا نفر** ﴾ : فهلا نفر ، والطائفة فى اللغة الجماعة . وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين ، وإنذار من لم يتفقه ، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا بعلم الدين أى بائس ... كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

ومعنى ﴿ **لعلهم يحذرون** ﴾ : الترجى لوقوع الحذر منهم عن التعريض فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل . ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا فى حربهم بالغلظة والشدة والجهاد واجب لكل الكفار ، وإن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهم وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ؛ ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال : ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ أى بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شىء .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ [التوبة : ٤١] و ﴿ إن لا تنفروا يعذبكم ﴾ [التوبة : ٣٩] قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ يقول : لتنفر طائفة وتمكث طائفة مع رسول **الله** ﷺ ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون فى الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله فى كتابه وحدوده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية قال : ليست هذه الآية فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين .

فردهم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله : ﴿ **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ وفى الباب روايات عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم** ﴾ قال : الأدنى ، فالأدنى . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ قال : « الروم » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ قال : شدة .

﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة** ﴾ : حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين ، أى إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لإخوانه منهم ﴿**أيكم زادته هذه** ﴾ السورة النازلة ﴿ **إيمانا** ﴾ يقولون هذا : استهزاء بالمؤمنين ، ويجوز أن يقولوه: لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وتزهيدهم فيه ، و﴿**أيكم**﴾ مرفوع بالابتداء وخبره زادته . وقد تقدم بيان معنى السورة . ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم ، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحى وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ وهم المنافقون ﴿**فزادتهم** ﴾ السورة المنزلة ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ أى خبثا إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، وإظهار غير ما يضمرونه وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين . والمراد بالمرض هنا : الشك والنفاق ؛ وقيل : المعنى : زادتهم إثما إلى إثمهم .

قوله : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يرون** ﴾ بالتحتية . وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطابا للمؤمنين . وقرأ الأعمش : « أو لم يروا » . وقرأ طلحة بن مصرف : « أولا ترى » خطابا لرسول الله ﷺ ، وهى قراءة ابن مسعود .

ومعنى ﴿ **يفتنون** ﴾ : يختبرون ، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة، قاله مجاهد . وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع . وقال قتادة والحسن بالغزو والجهاد مع النبى ﷺ ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ **ثم لا يتوبون** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **ولا هم يذكرون** ﴾ و « ثم» لعطف ما بعدها على يرون ، والهمزة فى أولا يرون للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر ، أى لا ينظرون ولا يرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم فى النفاق وإهمالهم للنظر والاعتبار .

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال: ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ أى نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين : ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك . وقيل : المعنى : وإذا نزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال : ﴿ **نظر** ﴾ فى هذه الآية موضوع موضع قال ، أى قال بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ؟ قوله : ﴿ **ثم انصرفوا**﴾ أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال : ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ أى صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها . وقيل : المعنى : أنه خذلهم عن قبول الهداية. وقيل : هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم : قاتله الله ، ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أو السبب الذى لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله : ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ فقال : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وإنصافهم .

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال : ﴿ **لقد جاءكم** ﴾ يا معشر العرب ﴿ **رسول** ﴾ أرسله الله إليكم له شأن عظيم ﴿ **من أنفسكم** ﴾ من جنسكم فى كونه عربيا وإلى كون هذه الآية خطابا للعرب ذهب جمهور المفسرين . وقال الزجاج : هى خطاب لجميع العالم . والمعنى: ﴿ **لقد جاءكم رسول من** ﴾ جنسكم فى البشرية ﴿ **عزيز عليه ما عنتم** ﴾ « ما » مصدرية ، والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم . والعنت : التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أى شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أو حريص على إيمانكم . والأول أولى ، وبه قال الفراء . والرؤوف والرحيم قد تقدم بيان معناهما ، أى هذا الرسول ﴿**بالمؤمنين** ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿ **رؤوف**

رحيـــم ﴾ ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ، ومرشدا له إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿ **فقل** ﴾ يا محمد ﴿**حسبى الله** ﴾ أى كافى الله سبحانه المنفرد بالألوهية ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أى فوضت جميع أمورى ﴿**وهو رب العرش العظيم**﴾ وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات . وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش . وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب . وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا**﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيمانا وتصديقا وكانوا بها يستبشرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ قال : شكا إلى شكهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون** ﴾ قـال: يقتلـون . وأخـرج ابن أبى شيبة وابن جريـر وابن المـنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه وقال : بالسنة والجوع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بالعدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بالغزو فى سبيل الله . وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك قال : يمرضون فى كل عام مرة أو مرتين . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : كانت لهم فى كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ قال : هم المنافقون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لاتقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوما انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا : قضينا الصلاة . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه . وأقول : الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر . وليس فى إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعددة إذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود . واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله ، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى .

وأخرج عبد بن حميد والحارث بن أبى أسامة فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعها ويمانيها . وأخرج ابن سعد عنه فى قوله : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ قال : قد ولدتموه يا معشر العرب . وأخرج

عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ قال : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » (١) وهذا فيه انقطاع ، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى . فقال : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر ابن محمد قال : أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى » (٢) . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ فقال على بن أبى طالب : يا رسول الله ، ما معنى ﴿ **من أنفسكم** ﴾ ؟ قال : «نسبا وصهرا وحسبا ، ليس فى ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح » . وأخرج الحاكم عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ يعنى : من أعظمكم قدرا (٣) . وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول . وأخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة نحوه . وفى الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيده ما فى صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم»(٤).

وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » (٥) وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن أبى شيبة وإسحاق بن راهويه وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل من طريق يوسف ابن مهران عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبى ﷺ ، وفى لفظ : آخر ما أنزل من القرآن : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر الآية . وروى عنه نحوه

---

(١) ابن جرير : ١١/ ٥٦ .

(٢) البيهقى ٧/ ١٩٠ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢١٧ : « رجاله ثقات إلا محمد بن جعفر بن محمد بن على فقد تكلم فيه وصحح له الحاكم».

(٣)صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى .

(٤) أحمد ٤/ ١٠٧ ومسلم فى الفضائل (١/٢٢٧٦) والترمذى فى المناقب (٣٦٠٥) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) أحمد ١/ ٢١٠، والترمذى فى المناقب (٣٦٠٧) وقال: «حديث حسن» والبيهقى فى الدلائل ١/ ١٦٧، ١٦٨.

من طريق أخرى أخرجها عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن الضريس فى فضائله ، وابن أبى داود فى المصاحف ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل، والخطيب فى تلخيص المتشابه ، والضياء فى المختارة . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : « ولم سألتم هذا ؟ » قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فإن تولوا فقل حسبى الله**﴾ يعنى : الكفار تولوا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وماهيته وقدره .

وإلى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى: « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه : محمد بن على الشوكانى ، غفر الله لهما . وكان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة ١٢٢٧ هـ .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

الحمد لله : انتهى سماعا على مؤلفه . أطال الله مدته فى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٥ هـ .

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما آمين